نڈ بنڈ

نِدّ بندّ

د. رامي عبد الباقي

تصميم الغلاف: محمد علي

رقم الإيداع: 2017/26644

I.S.B.N:978- 977-6640-24-5

الطبعة الأولى 2018م



الإدارة: 17 ش عزت باشا المطرية، القاهرة.

المدير العام: آية سعد الدين

مدير النشر : د. رامي عبد الباقي

نائب المدير : رامي غزالة

شؤون إدارية : رقية عبد الله

هاتف: 01099387500 - 01147633268

E – mail:zeinpublish2017@gmail.com
Facebook: Zein Publish

د. رامي عبد الباقي

نِدّ بنّد

الجزء الأول



إهداءٌ دائم

إلى أُمي أولًا

وثانيًا

وثالثًا ورابعًا وخامسًا

وإلى ما لا نهاية

أُهدي إليكِ كلَّ شيءٍ جيِّد فعلتُه في حياتي

وأتمنى أنْ أكون قَد أسعدتُّك.. ولو لمرةٍ واحدةٍ في حياتي

إهداءٌ خاص

إلى حبيبتي وزوجتي.. مروة

وأما قبلك.. فلم أعرف الحب

وأما بعدك.. فلا يوجد حب

إهداءٌ خاصٌ جداً

إلى ابنتي الحبيبة وفرحتي الأولى.. رزان

أتمنّى أن تَجِدي في أبيكِ ما يجعلك تفخرين به دومًا

أحبُّكِ يا صغيرتي

تمهيد

منذ بَدء الخلق، وكل المخلوقات يقف بعضها لبعض وقفة الندِّ للند.

منذ رفضِ إبليس السجود لآدم وطردِه من رحمة الله، وقد اتخذ آدم ندًا له.

منذ قيام قابيل بقتل أخيه وشقيقه هابيل، بعد أن استحوذت عليه مشاعر الحقد والغيرة، وقد أصبح أحفاد قابيل أندادًا لأحفاد هابيل.

وبمرور السنوات والعقود والقرون الطوال، تشكَّلت علاقة "الند بالند"، واتخذت أبعادًا أخرى غير البعد المتعارف عليه.

لم تعد مقتصرة على الصراع بين الخير والشر فقط، فمن الممكن أن يكون هناك أنداد في الخير، لمن يصبح أفضل.. أو أنداد في الشر، ومن يصبح أطغى.

لم تعد مقتصرة على شخصيتين فحسب، بل من الممكن أن تصبح أمتين أو مؤسستين، وهكذا.

في الصفحات القادمة، وعلى مدار تلك السلسة، نبدأ معًا رحلة استكشاف عالم الند للند.

نبدأ من بداية الخلق، ونرتحل عبر صفحات التاريخ، حتى نصل إلى لحظة قراءتك لذلك الكتاب.

نحاول معرفة سر تلك العلاقة، وكشف أسرارٍ لم تُنشر من قبل لأسبابٍ عقائدية أو سياسيةٍ أو حتى شخصية.

وقبل البداية لديَّ سؤال:

هل أنتم مستعدون لمعرفة عددٍ جديدٍ من الحقائق المنسية عمدًا، وهدم بعض الأكاذيب المسكوت عنها؟

آدم وإبليس

قبل أن نبدأ سلسلتنا "ندٌ بِند"، سنتحدث أولًا عن كيفية بدء الخلق.

قبل خلق البشر، كان أول المخلوقات التي خلقها الله -عز وجل- هو العرش، فلم يكن معه أحد، فهو الأول -عز وجل- بعدها بزمنٍ خلق الله القلم، وطلب منه أن يكتب كل شيء سيحدث، وكان هذا قبل أن يخلق الله السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وبعد خلقِ القلم بخمسين ألف سنة، أذن الله بخلق السموات والأرض في ستة أيام، وبعدها خلق الجبال والبحار، وخلق الشمس والنجوم والقمر والكواكب والنجوم وزيَّن السماء بها، وخلق -عز وجل- خلقًا أسماهم الجن، ولكنهم كانوا قومًا مفسدين يسفكون الدماء، حتى إنَّ الملائكة كانت تأتي وتعاقبهم، وكانت تحبسهم في بعض الجزر والبحار.

بعدها أراد الله أن يخلق خلقًا جديدًا، فسألت الملائكة عن هذا الخلق، هل سيكون مثل الجن مفسدًا ومدمرًا للأرض؟ فقال الله لهم: "إنه يعلم ما لا يعلمون". فعلمت الملائكة أن من هذا الخلق سيكون خير الرسل والأنبياء والشهداء والصديقين وأحباب الرحمن، وعندما أراد الله أن يخلق آدم، أمر مَلكًا أن يحضر له من كل تراب الأرض شيئًا، فذهب وجمع هذا التراب، وكان منه الأسود والأبيض والأحمر والأصفر، فكان اختلاف أجناس بني البشر.

خُلق آدم من ترابٍ في يوم جمعة، ثم بلل بالماء فصار طينًا، وظلَّ على حاله زمانًا طويلًا، حتى تغير وتماسك وصار فخارًا أجوف، هكذا خلق الله آدم عليه السلام، ولما خُلق ظل سنوات على هذه الحال، فما كان من الملائكة إلا أن ترقبه وتتوجس خيفةً منه، إلا واحدًا كان يترقبه في صمت: إبليس.

كان إبليس من الجن المخلوقين من النار، ولشدة عبادته وطاعته لرب العالمين، رفعه -عز وجل- لمرتبةٍ كبرى تقارب مرتبة الملائكة، حتى صار طاووسهم.

بدأت اللحظة العظيمة لخلق البشر، وهي بداية التاريخ، لحظة نفخ الروح في جسد آدم.. وكل من في الملأ الأعلى ينتظر ما ستصير إليه الأمور.. بدأت الروح تسري في رأس آدم، فبدأ ينظر ويفتح عينيه ويلتفت، وعند وصول الروح للأنف عطس، فقيل له أن يقول: "الحمد لله"، فقالها ليرد عليه رب العزة أن يرحمه الله، راح الكل ينظر لهذا الخلق الجديد العجيب عليهم، ولما صار حيًّا علَّمه الله كل الأسماء.

أراد الله أن يبيِّن فضل آدم على الملائكة، فجمع الملائكة وراح يسألهم عن أسماء بعض الأشياء، وهم لا يعرفونها، فيطلب رب العزة من آدم أن ينبئهم بأسمائها، وبعدها طلب الله من الملائكة السجود لآدم، فسجدوا كلهم، إلا إبليس.

كان إبليس متكبرًا مغرورًا، سأله الله عن السبب الذي منعه من السجود؟ -وهو أعلم- فأجاب بأنه خير منه، لأنه مخلوق من نار، بينما آدم مخلوق من طين، وأنه لن يسجد لمن هو أقل منه.

عصى إبليس أمر ربه فلعنه الله، وكان جزاؤه خروجه من الجنة، وكان هذا سبب الكراهية لبني آدم، لكن لم يصمت إبليس، بل طلب من الله أن يمهله ليوم يبعثون، وسيُغوي نسل آدم أجمعين، وأقسم على ذلك بعزة وجلال الله، فأمهله الله ليوم القيامة، وأنه رب العزة سيملأ، جهنم من إبليس وأتباعه.

سكن آدم الجنة، هو وزوجته حواء، حيث أُمرا بالعيش فيها، وأكل ما لذ وطاب لهما من خيراتها، ولكن حذَّرهما الله تعالى من الاقتراب من

شجرةٍ في الجنة، امتحانًا لهما وابتلاءً لطاعتهما لله.. وأطاع آدم وزوجته أمر ربهما فترة، قبل أن يبدأ إبليس انتقامه من آدم.

يُروى في العهد القديم أن إبليس استطاع التسلل إلى الجنة عن طريق تلبسه بحية كبيرة، وراح يغوي آدم وزوجته بالأكل من الشجرة، بينما لم يرد في القرآن القديم شيئًا عن كيفية تسلل إبليس إلى الجنة.

راح إبليس يتظاهر بأنه يريد مصلحة آدم وحواء، فادَّعى كَذبا أن هذه الشجرة هي شجرة الخلد، وأن الأكل منها يورث الخلود في الجنة والملك الدائم، لم يصمد آدم وحواء كثيرًا أمام إغواء إبليس لهما، وكانت النتيجة أن أكلا من الشجرة المحرمة، فكان هذا إيذانًا بخروجهما من الجنة ونزولهما إلى الأرض، وغضب الله عليهما فترة، قبل أن يقبل توبتهما بعد ذلك، ووعدهما بالرجوع إليها إذا آمنا به وعملا صالحًا في الأرض.

كان هذا هو الانتصار الأول لإبليس على آدم، الذي اتخذه ندًا له منذ اللحظة الأولى، وحتى لحظة نهاية البشرية، ومن المؤكد أنه ليس الانتصار الأخير.

قابيل وهابيل

دخلا التاريخ كأول أخوة أنداد، ودخلاه أيضًا كبطلين لأول جريمة قتل حدثت في التاريخ.. إنهما قابيل وهابيل.

عقب خروج آدم وحواء من الجنة، بعد وسوسة إبليس لهما، هبطا إلى الأرض، ووضعت حواء زوجة سيدنا آدم -عليه السلام- توأمين، هما: هابيل وأخته وقابيل وأخته، وكان كلٌّ من قابيل وهابيل عاملين في الأرض، فقد كان هابيل من رعاة الأغنام، أما قابيل كان من زرّاع الأرض.

تزوج كلٌّ من قابيل وهابيل أخت الآخر، حفاظًا على النوع الإنساني وحمايةً له من الانقراض والفناء، فتزوج قابيل توأم هابيل، وتزوج هابيل توأم قابيل، وكانت توأم قابيل أجمل من توأم هابيل، وعندما طلب آدم من أبنائه إتمام ذلك الزواج، أبى قابيل ذلك ورفض بشدة؛ لأن نصيبه هو الفتاة الأقل جمالًا.

أراد قابيل أن يتزوج من توأمه، خلافًا لأمر الله، ولم يرضَ بتلك القسمة، ولحل تلك القضية هدى الله تعالى آدم إلى مخرج، هو أن يقدم كلٌّ من قابيل وهابيل قربانًا إلى الله -عز وجل- والذي يقبل قربانه سينال مراده ومشتهاه وينفذ طلبه؛ أي إذا تقبل الله قربان قابيل، سيتزوج من أخته وليس أخت هابيل.

قدَّم هابيل قربانًا من أسمن أغنامه، أما قابيل فقد قدم قممًا من زرعه.. نزلت نار من السماء فأكلت قربان هابيل، وتركت لقابيل قربانه، ما كان إيذانًا بقبول قربان هابيل، ورفض قربان قابيل.

يفسِّر العهد القديم عدم قبول قربان قابيل بأنه كان مخالفًا لما كان يتطلبه وهو الذبيحة الدموية، أما هابيل فقد فعل وقدَّم دمًا يراق لوجه الله.

غضب قابيل من رفض قربانه، ونظر لأخيه متوعدًا إياه بالقتل، وألا يتركه يتزوج من أخته أبدًا.. لم يردّ هابيل عليه واكتفى بتأكيد أن الله لا يتقبل إلا من المتقين، كان هابيل رجلًا موفور الجسم والعقل، وُهِب الحكمة وآثر رضا الله تعالى وطاعة والديه راضيًا بقسمة ربه.

غلت نار الحسد والغيرة والحقد في قلب قابيل، فقام بقتل أخيه وهو نائم، ويقال إن حادثة القتل هذه قد حدثت في جبل "قاسيون" المطل على مدينة دمشق، وبهذا يكون هابيل أول من قتل على سطح الأرض.

لم يعرف قابيل كيف يواري جثة أخيه، وقرر أن يحمله في جراب على ظهره حائرًا ومضطربًا لا يعلم ما يفعل، إلى أن بعث الله تعالى غرابين يقتتلان، فقتل أحد الغرابين نظيره وحفر حفرةً في التراب بمنقاره ليواري فيها جثة الغراب الآخر ويخفيها، ومن هذا المشهد تعلَّم قابيل متأثرًا ومستشعرًا بشيء من الحسرة والندم، وحفر حفرةً لأخيه دافنًا جثته تحت التراب.

في العهد القديم، وبعد دفن هابيل يُروى أن الرب سأل قابيل عن مكان هابيل أخيه، فأجاب قابيل أنه لا يعلم، وأنه ليس بحارس لأخيه، فقال له الرب، ماذا فعلت يا قابيل؟ فصوت دم أخيك صارخ من الأرض ومن الآن أنت ملعون من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك، وكُتب عليك أن تكون تائهًا وهاربًا في الأرض.

أما في القرآن الكريم فقد ندم قابيل على فعلته وتاب إلى الله ومات من أثر الندم والحزن الشديد على المعصية التي ارتكبها بحق أخيه، كما أن قابيل أصبح يتحمَّل ذنب كل جريمة قتل عمد تحصل على الأرض من بعده، كونه أول قاتل على وجه الأرض وكان القتيل.. شقيقه!

عاد وثمود

أمتان تبارتا في عصيان الله - عز وجل- وكأنهما تتباريا من يكون الأكثر عصيانًا وطغيانًا!

أعطاهما الله كل النعم التي لا تُحصى ولا تعد، وبدلًا من أن يشكرا الله كفرتا بنعمه، وازدادتا كفرًا، فكان عقابهما الشديد من رب العباد.

الأمة الأولى هي قوم عاد.. و"عاد" هو اسم مؤسس هذه القبيلة وجدها الأكبر، يقال في روايات متعددة: إن هذا الاسم عربي، وفي أكثر الروايات منطقية، فإن عاد هو بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، وإلى عاد يُنسب نبي الله تعالى هود عليه السلام، الذي أرسله –سبحانه وتعالى- إلى قوم عاد ليدعوهم إلى طريق الحق والخير، ويبعدهم عما كانوا فيه من غيٍّ وجهلٍ وضلالة، يرجَّح أنهم كانوا يقيمون في مدينتهم إرم، وقد وصفها الله بأنها مدينة لم يوجد مثيل لها، وأنها ذات أعمدة عملاقة وباهرة، وأنها كانت ذات مزارع وجنان وجدت على الأرض وعيون ماء لتزدهر هذه الأراضي، وحيوانات من مختلف الأنواع كالغنم والماعز والحمير والبقر والإبل، وقد رزقهم الله بالأولاد، فتكاثروا وأصبحوا ذوي عدد، كما أمدهم بالقوة العددية، ورزقهم بقوة جسدية وعقلية كبيرة، ويرجَّح أن إرم كانت تقع في منطقة الأحقاف، وهي التي تقع إلى الجهة الغربية من سلطنة عمان، وإلى الجنوب من الربع الخالي، وهذا الموقع حاليًّا، هو موقع خالٍ من أي معالم، فهو موقع صحراوي، لا يمكن أن يصلح لحياة البشر.

دعا هود، عليه السلام، قومَه إلى طريق الله -عز وجل- إلى الإيمان بالله وعبادته، فقد كانوا يعبدون الأصنام ويتذللون لها ويقدمون لها القرابين المنوعة، وقد قيل إنهم أول الأقوام التي عادت لعبادة الأصنام بعد الطوفان الذي أصاب قوم نوح، وبالرغم من تكذيب قوم عاد لنبي

الله هود، فقد استمر في دعوته لهم بالترغيب والترهيب، فكان ردَّهم رفض وعظه وإرشاده، وأنهم لن يتركوا آلهتهم وأصنامهم، واتهموه بالسفاهة والكذب، وأنه لم يأت لهم بدليلٍ على دعوته ونبوته، وأن ما يفعلوه هو كفر، وأن الله واحد ليس له شريك في الخلق، ولا في الكون، وقالوا: إنه قد أوذي من قبل آلهتهم؛ لأنه يدعو لعبادة غيرها، وطلبوا منه أن يأتي بدليل صدقه على ما يقول.

أتت جميع ردود قوم عاد بالرفض البات والقاطع لعبادة الله عز وجل، وتكذيب هود عليه السلام وطغوا في الأرض وبطشوا وتجبروا وكفروا بآيات الله كلها وجحدوا وأنكروا رزقه، وتباهوا بقوتهم وببنيانهم، فكان أن أهلكهم الله لكبرهم وعنادهم وتكبرهم وتجبرهم، وبطشهم وإنكار ونسيان نعم الله والتمسك بالعادات والتقاليد المخالفة لشرعه سبحانه، وقد ركَّزت معظم الآيات على الخطيئة الكبرى لقوم عاد، ألا وهي الكبر والتكبُّر والاستكبار، وهي نفس خطيئة إبليس التي خرج بسببها من الجنة، وبعد محاولات كثيرة لهود عليه السلام ودعوة استمرت سنوات، وبعد اشتداد طغيان قومه، قال لهم هود عليه السلام: إن الله قد أوقع بهم غضبه لجدالهم عن آلهة قد نحتوها بأيديهم وأعطوها الألقاب، وحذَّرهم بأن عقاب الله قادمٌ لا محالة، وأنه سينتظر ذلك اليوم الذي سيحل فيهم العقاب الإلهي، ليعرفوا مدى صدق كلامه ودعوته، وتبرَّأ من شرك قومه، ودعا ربَّه أن ينصره على هذا الشرك، فاستجاب الله - عز وجل- لدعاء نبيه هود، وأوحى له أنه سينزل العقاب بهم، وسيجعلهم كزبد البحر متناثرين لا وجود حقيقي لهم، وتوعدهم بعذابٍ شديدٍ في الدنيا وفي الآخرة، ليذيقهم الخزي بعد التجبر والكبر.

أمسك الله عنهم المطر، وجعل أرضهم في قحطٍ وجفاف، فجلسوا يطلبون من آلهتهم المطر، فأرسل الله لهم عذابه الشديد، فاعتقدوا في

البداية أن السحاب والريح القادمين إلى مملكتهم هي استجابة أصنامهم لدعائهم، لكنها كانت المفاجأة، عذاب الله قد سقط فوق رؤوسهم، عذاب الله الذي طلبوه ساخرين من هود عليه السلام واستعجلوه به، ليكون دليلًا على صدق قوله ودعوته. جاءتهم الريح القوية الشديدة العاصفة والباردة التي لا تحمل أي خير في ثناياها، لتستمر طوال سبع ليال وثمانية أيام، فدمرت كل شيء في المدينة وجعلته رميمًا، ولم يبق إلا بيوتهم ومساكنهم ذات الأعمدة، لتكون شاهدةً على وجودهم بعد موتهم.. كانت الريح ترفع أفراد القوم العمالقة الأشداء في السماء، ثم ترميهم على الأرض كأصول النخل الخاوية، ثم تقع على الأرض جوفاء بالية، فلم تبقِ منهم أحدًا.

نجَّا اللهُ هود -عليه السلام- ومن آمن به من القوم، برحمته وقوته –سبحانه- من العذاب الشديد الذي لا يقدر عليه أحد، مهما بلغت قوته وشدته وجبروته وتركت بقايا قوم عاد كدليل على قدرة الله - عز وجل، على إنزال العذاب بمن يكفر ويطغى.

أما قوم ثمود فقد أتوا بعد قوم عاد، سُمي قوم ثمود بهذا الاسم نسبةً إلى جدهم الأكبر ثمود، وقيل إن ثمود هو ابن عاد ومن نسله، وقيل أيضًا إن ثمود هو بن عامر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، أما المكان الذي تواجدوا فيه، فهو في مدائن صالح أو ما يعرف بالحجر، وهذه المنطقة تقع في جنوب شرق مدينة مدين بلد نبي الله شعيب عليه السلام، الذي أرسله الله تعالى لاحقًا إلى قومه في هذه المدينة، وهي ذات المدينة التي لجأ إليها نبي الله موسى عندما فرَّ من مصر، وللحجر أهمية كبيرة في التاريخ، وهي الآن واحدة من أهم المعالم السياحيّة في المملكة العربية السعودية.

أرسل الله تعالى الكثير من الرسل إلى قوم ثمود، لكنهم قوم جبارين كانوا يكذِّبون بالرسل ويقتلونهم ويعيثون في الأرض فسادًا وطغيانًا

وكفرًا، وتجلَّت حكمة الله تعالى، بأن يولد سيدنا صالح عليه السلام بين قوم ثمود، ثم ترعرع وأصبح مشتدًا في عمره، وأرسله الله تعالى لقوم ثمود ليهديهم إلى طريق الحق والإيمان بالله وحده لا شريك له، ويتقربوا إليه -سبحانه تعالى، لكن قوم ثمود كذَّبوه في دعوته ونبوته، ويريدون دليلًا على صدق نبوته، وطلبوا منه إن كان نبيًا، أن يخرج ناقةً من الصخر، فاستجاب الله تعالى لسيدنا صالح عليه السلام، فانشق الجبل إلى نصفين، وخرجت ناقة ضخمة إلى الملأ، وكانت هذه الناقة تعادل في حجمها عشر نوق من نياق الأرض، ومن معجزاتها أنها رغم ضخامتها لكنها لا تؤذي أحدًا؛ إنسانًا أو نباتًا أو حيوانًا، وأمر الله تعالى أن يُخصص لها يوم كامل تشرب منه، دون أن يشرب معها أحد، كما كان من معجزاتها، أنها كانت تشرب الماء يومًا كاملًا لا يشرب فيه قوم ثمود، ومقابل الماء الذي تشربه تُدر حليبًا يكفي ثمود كلهم، ولكن كان الشيطان أقرب إليهم مما كانوا يعتقدون، أخذوا يتربصون بالناقة لقتلها بحجة أنها تحرمهم شرب الماء يومًا كاملًا، وحذَّرهم صالح عليه السلام من المساس بها، وتوعدَّهم بعذاب الله إن فعلوا ذلك، ولكنهم أصروا وعقروا الناقة.

أمهلهم الله تعالى ثلاثة أيام ليتوبوا عما اقترفوه، ويقال أصفرت وجوههم في اليوم الأول، وأحمرَّت في اليوم الثاني، وأسودت في ثالث يوم، وأنذرهم صالح بأن هذا دليل على قُرب عذاب الله تعالى إنْ لم يتوبوا، لكن دون جدوى، فأرسل الله تعالى سيدنا جبريل عليه السلام بالصيحة، وصاح صيحةً قطعت قلوبهم وتركتهم جثث هامدة في بيوتهم جاثمين.

أمتان أتاهم الله الكثير من النعم، ولكنهم لم يصونوها وكفروا وطغوا وكذبوا الرسل، فحق عليهم العذاب من الله - عز وجل.

سارة وهاجر

النساءُ هُنَّ النساء.. أجمل ما خلق الله - عز وجل- في الأرض، والمرأة لا تتغير حتى لو كانت زوجة أو أم نبي.

بطلتا هذا الفصل، هما زوجتا أبو الأنبياء وخليله إبراهيم عليه السلام، سارة، والدة نبي الله إسحاق -عليه السلام.. وهاجر، والدة نبي الله وأبي العرب إسماعيل -عليه السلام.

سارة ابنة هاران، هي زوجة خليل الله إبراهيم الأولى وأم النبي إسحاق، أبو النبي يعقوب الذي ينحدر من نسله سلالة أنبياء بني إسرائيل.. أتى ذكرها بالتوراة على أن اسمها ساراي، ثم تحول إلى سارة بعد وعدٍ قطعه الله لها بولد بعدما كانت عجوزًا عاقرًا، كما ذُكرت الحادثة في القرآن من دون تسميتها، وقال المفسرون المسلمون إن المرأة المذكورة في الآية هي السيدة سارة.

أما السيدة هاجر أم النبي إسماعيل، فهي امرأة عبرية.. كما أنها مذكورة في كتب بني إسرائيل، واختصها الله لتكون من أطهر نساء الأرض وتتزوج نبي الله إبراهيم وتنجب منه نبي الله إسماعيل عليهما السلام، وذكرت كتب اليهود أن السيدة هاجر، عليها السلام، كانت جاريةً مصرية، كما أن بعض الكتب نفت أن تكون جارية، وقالت بأنها كانت أميرة، وكانت ابنة فرعون مصر، بينما ذكرت كتب أخرى بأنها كانت ابنة أحد الملوك الكنعانيين، والذي قتل على يد الفراعنة، ووقعت ابنته في الأسر، فأخذها الملك الفرعوني وأهداها إلى زوجة نبي الله إبراهيم سارة، حتى تكون جارية لها، ويحكى أنه في يومٍ من الأيام، أراد هذا الفرعون أن يواقع سارة رغمًا عنها، فقاومته، إلى أن تركها على أن يعاود الكَرة، فدعت عليه أن بالشلل، وبالفعل شُلَّت يده،

ولكنه حاول أن يستسمحها ويطلب منها الغفران، فأهداها هاجر، ودعت السيدة سارة، الله أن يشفيه وشفا الله يده بالفعل.

قامت سارة بتزويج هاجر إلى زوجها نبي الله إبراهيم، عليه السلام؛ لأنها وصلت سنًا لا تستطيع الإنجاب بعده، ولطالما أراد نبي الله إبراهيم ولدًا يخلفه في النبوة، وبالفعل تزوجها نبي الله وأنجبت له نبي الله إسماعيل عليه السلام، ولكن سارة كانت تغار من هاجر بصورة كبيرة؛ لأنها أنجبت ولدًا، في الوقت الذي كانت هي فيه عاقرًا، وكان نبي الله إبراهيم يدعو الله دومًا أن يعينه على العدل بين زوجتيه، فاستجاب الله سبحانه وتعالى لدعوة خليله وبعث بملائكته ليبشروا إبراهيم بولد آخر من زوجته سارة وهو إسحاق، وكان هذا بعد أن أصبح عمر إسماعيل خمسة سنوات.

بدأت الغيرة والمنافسة النسائية تتسلل إلى الزوجتين، ومن أجل الحد من المشاكل والخلافات بينهما، أمر الله إبراهيم عليه السلام بأن يأخذ هاجر وابنها إلى مكانٍ بعيدٍ عن سارة وابنها، وبالفعل نفَّذ أمر الله.

حمل إبراهيم زوجته وولده وبدءا في السير بين الوديان، أصبح إبراهيم كلَّما مرَّ على مكانٍ به نخل وزع يقول: أهنا يا رب؟ وإذا بجبريل يقول له أمضِ يا إبراهيم، فظل يسير هو وزوجته هاجر، إلى أن وصلا إلى مكة المكرمة، وكانا قد أخذا بعض التمر والماء في الطريق، ولكن عندما وصلا إلى هناك، طلب جبريل منه أن يتركهما هنا، وكان قد تبقى معها القليل من التمر والماء، فوضع إبراهيم زوجته وولده وتركهما حيث أمر، كانت هاجر خائفة وطلبت منه أن يبقى، ولكن سيدنا إبراهيم أخبرها أن الله سوف يرعاها هي وطفلها، صمتت هاجر لأنها واثقة في رحمة الله وحكمته، ولكن اشتد الحر عليها وعلى طفلها، ونفدت المياه التي كانت بصحبتها، والتمر أيضًا، واشتدت العطش على

سيدنا إسماعيل، عليه السلام، وبدأ في البكاء، وما كان من أمه سوى أن تبدأ بالجري في المكان، فتارةً تصعد على جبل المروة، وتارة أخرى تصعد جبل الصفا، لتنظر من حولها لعلها تجد من يساعدها، ولكنها لم تجد شيئًا، وبدأت تجري من هنا إلى هناك، تبحث عن ماء لطفلها، حتى أكملت سبعة أشواط، ووصل بها الحال أن أعياها التعب، فجلست بجوار طفلها إسماعيل الذي كان يضرب الأرض برجله من شدة البكاء والعطش، فإذا بالماء يتدفق من تحت أقدامه، وأخذت هاجر تشرب وتُسقي طفلها، وتضم الماء وتقول "زمي زمي"، فسمي المكان ببئر زمزم، فأصبح هذا الماء ماء مباركًا حتى يومنا هذا، وأصبح الجميع يشرب منه طالبًا الشفاء من الله، سبحانه وتعالى، وأن يعوضوا، كما عوض السيدة هاجر.

كان أمر الله الذي نفذه إبراهيم، عليه السلام، هو تمهيد لقدسية مكة المكرمة، بعد أن أقام سيدنا إبراهيم وولده إسماعيل قواعد البيت الحرام بمكة، وأخذ الحجاج يتوافدون عليها من كل مكان حتى يومنا هذا.

يعقوب وعيسو

يبرز أيضًا في ساحة الند بالند، كأخوة وأشقاء بجانب قابيل وهابيل، ابني آدم عليه السلام. يعقوب وعيسو ابني إسحاق، ابن خليل الله وأبو الأنبياء إبراهيم عليهما السلام.

كان نبي الله إسحاق قد تزوج من "رفقة"، وبعد فترة زواج طويلة قاربت العشرين عامًا بلا أي أطفال، رزقهما الله بيعقوب وعيسو كتوأمين.

عندما كانت رفقة حاملًا بهما، كان الطفلان يتصارعان مع بعضهما داخل رحمها، ما أثار خوفها من هذه الحركة الغريبة. فسألت "رفقة" الله عن سبب تلك الحركة، بعدها عرفت أنها حامل بطفلين وأنهما سيؤسسان أمتين مختلفتين، ويكونان دائمًا في تنافس -وفي حقيقة الأمر فإن الأخ الأكبر سيخدم الأخ الأصغر- لم تخبر رفقة زوجها إسحاق بذلك الأمر، بل احتفظت بذلك في قلبها.

كان عيسو أول من ولد، ثم ولد أخوه يعقوب بعده مباشرة، وكان يمسك بكعب قدم عيسو، ولذلك سمي يعقوب، أي (الكعب) المشتق من الكلمة العبرية " עקב".. فضَّل إسحاق عيسو، والذي كان صيادًا ماهرًا ولكن الأم فضَّلت يعقوب، والذي كان هادئ الطباع ويسكن الخيام.

خلال فترة شباب عيسو ويعقوب، تمت تربيتهما في نفس البيئة، وتعرَّضا لنفس الحياة التي تعرض لها من قبل أبوهما إسحاق وجدهما إبراهيم.. وفي يومٍ من الأيام، عاد عيسو من الحقل وكان جائعًا للغاية، فانتهز يعقوب هذا الموقف وعرض على عيسو صحنًا من الحساء، مقابل أن يبيعه عيسو حق بكوريته -كونه الأخ الأكبر- وافق عيسو على

عرض يعقوب وقال: "إني سأموت فما نفع البكورية لي؟"، وأصبح يعقوب منذ تلك اللحظة هو صاحب الحق في البكورية.

وفي الحقيقة فإن تنازل عيسو عن بكوريته يدل على ازدرائه للتقاليد التي كانت لدى أبيه إسحاق، والبكورية كانت تعطي لصاحبها مرتبةً عليا في العائلة وقيمةً مضاعفة من الإرث، وأهم ما في موضوع البكورية هو البركة الإبراهيمية، وبناءً على هذا الأمر، كان عيسو الابن الأكبر لإسحاق، هو الذي سيرث النبوة وكل الامتيازات الأخرى، ولكنه تنازل عن حقه لأخيه يعقوب، قبل أن تكمل والدته الأمر.

كانت "رفقة" قد خططت لتجعل ولدها يعقوب المقرَّب والمحبب لها، يستولي على هذا اللقب، فانتهزت فرصة أن خروج عيسو ليحضر الطعام إلى أبيه المكفوف في أحد الأيام، ثم نفذت خطتها الماكرة.

كان إسحاق والد يعقوب كبيرًا في السن، وقد أصيب بالعمى، فلما قرر أن يبارك ابنه الأكبر عيسو قبل أن يموت، أمره أن يذهب إلى البرية ليصطاد له صيدًا ويحضره له طعامًا، قبل أن يأخذ البركة، فسمعت رفقة حديثهما، فأرشدت ابنها يعقوب بأن يصطاد لها نعجتين، لتحضِّر وجبةً شهيةً لأبيه فيستلم بذلك البركة من أبيه بدلًا من أخيه عيسو، ولكن يعقوب تردد وأصابه القلق من أن يلمس أبوه جلده فيتعرف عليه؛ لأن عيسو كان شخصًا خشنًا كثيف الشعر، ويعقوب كان أملسًا وخفيف الشعر، فيجلب بذلك على نفسه اللعنة بدلًا من البركة، فطمأنت رفقة ولدها يعقوب وامرأته بأن يضع جلد نعجة حول رقبته ويديه، ليعطيه الملمس الخشن والشعر الكثيف.

ذهب يعقوب إلى خيمة أبيه متنكرًا بجلد النعجة، كما أخبرته والدته، فتفاجأ إسحاق من سرعة عيسو في الصيد وارتاب في الأمر فسأله بشك: "من أنت يا بني؟".. فأجابه يعقوب: "أنا عيسو ابنك

البكر". وكان إسحاق لا يزال متشككًا في الأمر، فطلب منه أن يضع يده عليه لكي يتأكد، لأن عيسو كان مشعرًا، وقد بدا أن جلد النعاج الذي وضعه يعقوب عليه قد خدع إسحاق ولكنه قال: "إن الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يد عيسو". وعلى الرغم من حالة الشك التي كانت تغمر إسحاق، فقد قام بمباركة يعقوب في النهاية.

ما أن غادر يعقوب الخيمة، وصل عيسو واكتشف الخدعة التي نفذها توأمه بمعاونة والدته. كان إسحاق متفاجئًا وتأكد بأنه قد بارك يعقوب، وقد أشفق إسحاق على عيسو فأعطاه بركةً أقل، فقال عيسو في ثورةٍ وهياجٍ شديدين بأنه سيقتل يعقوب ويسفك دمه.

علمت رفقة بنوايا عيسو للانتقام من يعقوب، فأمرت يعقوب بالهرب إلى بيت أخيها لابان، حتى يهدأ غضب عيسو، كان هناك غرضان لرحلة يعقوب، وهما الهرب من عيسو، وإيجاد زوجة له؛ لأن لخاله لابان ابنتين ليئة وراحيل، في الطريق إلى حاران رأى يعقوب رؤيةً من السماء، حيث رأى سلمًا يصل إلى السماء وملائكةً يصعدون وسميت الرؤية بسلم يعقوب، من أعلى السلم سمع صوت الله الذي كرر العديد من البركات عليه. استيقظ يعقوب في الصباح وأكمل طريقه إلى حاران.

توقف يعقوب عند بئر، حيث يسقي الرعاة ماشيتهم، وهناك قابل الابنة الصغرى لخاله لابان، وهي راحيل ووقع في حبها على الفور، وبعد أن مكث شهرًا عندهم، طلب يدها للزواج، مقابل أن يعمل سبع سنوات لدى خاله كمهرٍ لراحيل.

بدت السبع سنوات كأنها أيام معدودة لشدة حبه لها، لكن عندما انقضت هذه السنين خدع لابان يعقوب وأبدل "ليئة" بـ "راحيل"، ولم يعرفها يعقوب لأنها لبست خمارًا على وجهها.. في الصباح عندما عرف

يعقوب ذهب إلى خاله، ولكن لابان برر فعلته بأنه يجب أن تتزوج البنت الكبرى أولًا في بلادهم، ومع ذلك وافق يعقوب أن يعمل سبع سنوات أخرى ليأخذ راحيل، فتزوج يعقوب براحيل بعد أسبوع من زواجه من ليئة، وأكمل السبع سنوات الأخرى، أحب يعقوب راحيل أكثر من أي شيء في العالم وبدأ يفضلها على ليئة، وبذلك شعرت ليئة بالكراهية الشديدة ناحية يعقوب وراحيل.

بارك الله رحم ليئة، فولدت ستة أولاد هم: روبين وشمعون ولاوي ويهودا وزبولون ويساكر، وبنتا واحدة اسمها دينا، بينما كانت راحيل عاقرًا، فأعطت جاريتها بيلها كزوجة ليعقوب، فدخل عليها وولدت له دان ونفتالي.

رأت ليئة بأنها توقفت عن الولادة، فأعطت يعقوب جاريتها زيلفا، فولدت له ابنًا اسمه جاد، وآخر اسمه آشير.. وبعد فترة من الزمن أكرم الله راحيل، فولدت يوسف وبنيامين.

عندما ولد يوسف، أراد يعقوب أن يزور بيت أبيه، ولكن لابان كان مترددًا من أن يدعه؛ لأن الله بارك ماشيته بسبب يعقوب، عرض لابان أن يدفع ليعقوب، ولكن يعقوب قام باتفاقٍ غريبٍ مع لابان، حيث اقترح عليه أن يزيل كل النعاج المنقطة البُنية، وما يولد منهم يكون ليعقوب، فجعل يعقوب النعاج الحوامل أن ينظروا على النعاج المنقطة، فيتوحموا ويلدوا نعاجًا منقطة، بذلك أصبح يعقوب غنيًا.. بعد ذلك رأى بنو لابان بأن يعقوب أصبح يملك أحسن الماشية، فتغيرت نظرة لابان له.

أراد يعقوب أن يرحل ويأخذ زوجاته وأطفاله من دون أن يعلم لابان، وقبل أن يرحلوا، سرقت راحيل تماثيل من بيت لابان، وعندما علم غضب وقام بملاحقة يعقوب لسبعة أيام، في الليلة التي سبقت

إمساك لابان ليعقوب، ظهر الله للابان في حلمٍ وحذره من أن يقول أي شيء ليعقوب.. عندما تقابل يعقوب ولابان، أدى لابان دور الحمى المجروح وطالب بإرجاع التماثيل دون أن يعلم يعقوب بأن راحيل أخذت التماثيل، قال للابان إن من أخذها يجب أن يموت، وعرض عليه أن يفتش أغراضهم، عندما دخل لابان خيمة راحيل قامت راحيل بتخبئة التماثيل، فلم يرها لابان، فمضى كل واحد في طريقه.

في طريقه إلى كنعان، سمع يعقوب من رسله، أن أخيه عيسو قادم إليه ومعه أربعمائة رجل، وهو عازم على الانتقام منه، فخاف يعقوب كثيرًا من انتقام أخيه، قسَّم يعقوب جيشه إلى نصفين لكي ينجو نصف الجيش على الأقل في حال هجوم عيسو على نصفه الآخر، ثم دعا يعقوب رب العالمين أن ينجيه من بطش أخيه عيسو، وقد جهز هدايا كثيرة لكي يستعطفه بها مكونةً من مائتي عنزة، عشرين تيسا وعشرين كبشا وثلاثين ناقة مرضعة وأولادها وأربعين بقرة وعشر ثيران وعشر حمير، وأمر يعقوب أتباعه أن يقسموا هداياه قطيعًا قطيعًا، كل قطيع يقوده نفرٌ من أتباعه، وأن يجعلوا فسحة بين قطيع وقطيع، وأمر كل نفر من أتباعه إذا صادفهم عيسو وسألهم أن يجيبوه بأنها هدايا من عبدك يعقوب إلى سيده عيسو، وأن يقولوا له بأن عبدك يعقوب هو وراءنا يستعطف وجهك بهذه الهدية السائرة أمامه، وينظروا إلى وجهه عسى أن يرفع وجهه، فاجتازت الهدية قدامه وأما هو فبات تلك الليلة في المحلة.

عبر يعقوب الأرض التي سماها فنوئيل، وأمامه رأى عيسو أخوه مقبلًا إليه ومعه الأربعمائة رجل، فأمر زوجتيه ليئة وراحيل وجارتيه وأبناءه من كل واحدة منهن، أن يصطفوا ورائه، فسجد يعقوب إلى الأرض سبع مرات حتى اقترب إلى أخيه، فركض إليه عيسو وعانقه ووقع على عنقه وقبله وبكيا، ثم تقدمت كل زوجة وجارية هي وأبنائها

وسجدت كل واحدة منهن لعيسو، فسأل عيسو يعقوب عن جنوده الذين يحملون الهدايا، فقال له يعقوب: "لأجد نعمة في عيني سيدي".. رأى عيسو أن الهدايا كثيرة، فرفض أن يأخذها، فألحَّ عليه يعقوب حتى أخذها وأخبره أنه رأى وجهه من قبل، وأراده أن يكون راضيًا عنه، اصطلح الأخان بعد فترة طويلة من الجفاء، قبل أن يرحلا بعدها، فعاد عيسو إلى سعير، أما يعقوب فارتحل إلى سكوت.

بعدما ودَّع يعقوب أخاه عيسو وذهب كل واحد منهما إلى سبيله، ارتحل يعقوب إلى مكان دعا اسمه سكوت، أقام فيه وبنى لنفسه بيتًا، وصنع لمواشيه وبهائمه مظلات، وبعدها شد رحاله إلى مدينة شكيم، قرب كنعان، وعندما وصل حدود كنعان، كانت راحيل زوجته على وشك الولادة، فولدت الابن الأصغر ليعقوب الذي هو بنيامين، وماتت، بعدها قام يعقوب بدفنها، وشيد صرحًا لقبرها الذي يقع خارج بيت لحم ولا يزال قبرها مزارًا ليومنا هذا.

وأخيرًا وصل يعقوب إلى بيت أبيه إسحاق ومكث معه قليلًا، قبل أن يتوفى إسحاق وعمره مائة وثمانون من السنوات، فدفنه يعقوب وعيسو في مغارة في حقل المكفيلة، وافترق الأخان النِدَّان منذ هذه اللحظة، وإلى الا بدَّ.

من المؤكد أن هذه القصة لم تذكر في القرآن الكريم، بل ذكرت كاملةً كما قدَّمتها لكم بين صفحات العهد القديم، ولكن على الرغم من كل شيء قد يكون غير منطقي، فإن يعقوب وعيسو كانا بالفعل مثال الند بالند، لذا وجب ذكر قصتهم.

طالوت وجالوت وداوود

ما بين ملكٍ ونبيٍ ومحاربٍ قوي، تدور أحداث هذا الفصل.

الملك هو طالوت، والنبي هو داوود، والمحارب القوي هو جالوت.

كان بنو إسرائيل، مؤمنين بالله ويعيشون على الاستقامة والعدل، وقد أرسل الله إليهم الأنبياء ليرشدوهم إلى طريق الحق والخير، فكبر شأنهم وقويت دولتهم، فكانوا لا يقاتلون أحدًا إلا غلبوه، كانت قوتهم الحقيقية تكمن في إيمانهم بالتوراة، حيث تقول الروايات بأنه كان لديهم تابوت ورثوه عن أجدادهم يضعون فيها الألواح التي أنزلت على موسى عليه السلام، فكان نعمةً من الله - عز وجل- وله شأن كبير عندهم.

كانوا يقدمون التابوت بين جنودهم لحظة اشتباكهم مع أعدائهم، فينشر السكينة بنفوس الجنود، ويبعث الخوف في نفوس أعدائهم، إلا أن بني إسرائيل بعد أن كبر شأنهم وقويت دولتهم زاغت قلوبهم عن الحق وابتعدوا عن طاعة الله -سبحانه وتعالى- كعادتهم دائمًا، وكما فعلوا قبلًا مع موسى، طغوا وظلموا وكذَّبوا الأنبياء الذين أرسلوا إليهم، فسلط الله عليهم أقوامًا أخرى فقتلوهم واستولوا على التابوت والتوراة، وأصبحوا مشردين في الأرض ومذلّين بعد أن كانوا أسيادًا وملوكًا.

لم يكن أحد من بني إسرائيل يحفظ التوراة إلا القليل منهم، فضعف شأنهم حتى أصبحوا أذلةً في الأرض، وكعادة الجنس البشري عندما يصبح ضعيفًا، عادوا إلى رشدهم وتركوا العادات التي تبعدهم عن الله وراحوا يصومون ويصلون حتى يرضى الله عنهم ويتضرعون إلى الله بأن يبعث عليهم ملكًا يعيد لهم كرامتهم، فهيأ الله -عز وجل- لهم

ملكًا صالحًا اسمه طالوت.. لم يوافق بنو إسرائيل على طالوت ملكًا في البداية، فقد راحوا يقولون إن هناك من يستحق الملك أكثر منه، ولكن قال كبراؤهم، إنه اختيار الله ومشيئته، التي لا يجب أن ترفض أو ترد.

علم طالوت -ملك إسرائيل- بأن أعداء لهم يجهزون أنفسهم لقتالهم على رأسهم محارب قوي طاغية يدعى جالوت، بدأ طالوت يجهز جيشًا من بني إسرائيل لملاقاة الأعداء، فقاد الجيش وتوجه لملاقاتهم، وكان جيشه يتكون من ثمانين ألف مقاتل، وأخبرهم بألا يشربوا من نهرٍ سيمرون عليه في طريقهم لملاقاة جالوت وجنوده، وهو نهر الأردن، ومن يشرب منه فليس من جيشه ولا يقاتل معه، ومن لم يشرب فهو معه، وعندما وصل الجنود إلى النهر، كان العطش قد أصابهم، فخالف أغلبهم أمر ملكهم وشربوا من ماء النهر، فعادوا إلى بيت المقدس، إلا خمسمائة مقاتل فقط تبقوا مع طالوت، فأخذ طالوت هؤلاء لملاقاة أعدائهم، فخاف جند طالوت وطلبوا من الله مساعدتهم، ثم تواجه الفريقان، فخرج جالوت وهو مختال ومتكبر من بين صفوف جيشه، طالبًا المبارزة، فلم يخرج أحد من صفوف جيش طالوت لعلمهم بقوة جالوت وطغيانه، وأنه لن يستطيع أحد أن يقف أمامه، فنادى جالوت مرةً أخرى فلم يخرج أحد لمبارزته، هنا تدخَّل الملك الصالح طالوت، فقال لجيشه: من يبارز جالوت ويقتله، زوَّجته ابنتي، وجعلته قائدًا للجيش، وسيكون له الملك من بعدي، فخرج من بين الصفوف شاب صغير السن فقير الحال، وكان هذا الشاب هو داوود، عليه السلام.

استغرب جنود طالوت وعجبوا كيف يستطيع هذا الشاب الصغير السن الضئيل الحجم مقارنةً بجالوت أن يبارزه؟! إلا أن داوود كان معتمدًا على قوة إيمانه، وبأن الله سيقف بجانبه ولن يتخلى عنه،

ولهذا فقد استطاع داوود قتل جالوت.. وبذلك انتهت المعركة بانهزام جيش جالوت وانتصار جيش الملك طالوت، وما لبث أن أصبح داوود عليه السلام ملكًا على بني إسرائيل.

كان حكم داوود لبني إسرائيل يتسم بالعدل والحكمة، أحبه بنو إسرائيل لأنه قتل جالوت، واستمر حكمه حتى وفاته ساجدًا لله -عز وجل.

بطرس ويهوذا

على مفترق طريقٍ صعبٍ وعر، يقف هذان الاثنان:

الأول اختار طريق الحق والهدى، وإن شك أو خاف للحظات، بينما اختار الآخر طريق الخيانة والغدر، حتى صار أشهر الخونة في صفحات التاريخ.

الأول هو سمعان أو بطرس كما سماه المسيح لاحقًا، أحد التلاميذ الاثني عشر، ويحتل مكانةً بارزةً في أناجيل العهد الجديد وسفر أعمال الرسل، كما يلقَّب أيضًا بالصخرة عندما قال له المسيح بأنه سيكون الصخرة التي سيبني عليها كنيسته.

حسب الرواية الرسمية، فهو ابن يوحنا أبو يونا، ومن قرية بيت صيدا في شمال الجليل قرب بحيرة طبرية وهو شقيق أندراوس، أحد التلاميذ الاثني عشر أيضًا.

ولد ونشأ بطرس في قرية بيت صيدا في الجليل بفلسطين، وعمل هناك صيادًا للسمك مع أخيه أندراوس قبل أن يدعوه المسيح، ليكون أحد أتباعه وأصبح بعد ذلك قائدًا لبقية رسل المسيح والذين انضموا إليه لاحقًا وهم:

- أندراوس شقيق بطرس، وهو صياد من بيت صيدا في الجليل، وهو أول رسول دعاه المسيح، وكان قبل ذلك تلميذ ليوحنا المعمدان.

- فيلبس وهو صياد من بيت صيدا في الجليل.

- يعقوب بن زبدي، وهو صياد من بيت صيدا في الجليل.

- يوحنا بن زبدي، وهو صياد وهو الملقَّب بابن الرعد وأخو يعقوب.

- برثولماوس أو نثنائيل، وهو صياد هو صديق فيلبس.

-يعقوب بن حلفى، أو كما يدعى بيعقوب الصغير.

- يهوذا لباوس، الملقب بتداوس، وهو شقيق يعقوب بن حلفى، وذكر اسمه كيهوذا بن حلفى في بعض آيات الإنجيل.

-متى العشار، وهو من كفرناحوم في الجليل، وكان عشار يجمع الجباية لمصلحة الرومان.

-توما، وكان يدعى بالتوأم.

-سمعان القانوي، ويلقَّب أيضًا بسمعان الغيور.

أما آخر تلاميذ المسيح، فهو رجلنا الآخر.. يهوذا الإسخريوطي.

كان بطرس متحمسًا للدفاع عن معلمه، وكان هو أيضًا من سار معه على الماء، حيث يحكي أن المسيح كان يمشي على الماء، وقال لبطرس أن يذهب إليه، فسار بطرس على الماء، ولكن عند ارتفاع الأمواج، خاف وارتعش فبدأ في الغرق فأمسك به المسيح وأنَّبه على قلة إيمانه، وعندما أعلن المسيح عما سيحدث له لاحقًا من قبل الرومان وخيانة أحد تلامذته له قال له بطرس: إنه مستعدٌ أن يمضي معه إلى السجن، وحتى إلى الموت، إلا أن المسيح ابتسم له وقال له: إنه لن يصيح الديك، حتى يكون بطرس قد أنكره ثلاث مرات، ومع أن بطرس أنكر المسيح، إلا أنه كان أول من اعترف به وآمن به، وأحد أكبر المبشرين في التاريخ.

بشَّر بطرس في فلسطين وفينيقية وآسيا خمس سنوات، ثم أقام كرسيه سنة أربعة وأربعون، قبل أن يعود إلى أورشليم في السنة نفسها، ولنشاطه في نشر الديانة المسيحية، ألقاه هيرودس في السجن وخلصه ملاك الرب حسب الرواية، فاستأنف التبشير وعقد المجمع الأول مع الرسل وكتب رسالته الأولى قبل أن يعود إلى روما، حيث

أسقط سيمون الساحر، وكشف خدعه وتعاونه مع الأرواح الشريرة، وكان سيمون عزيزا على نيرون الملك الذي غضب بدوره من بطرس، وما لبث أن أمر بالقبض عليه وسجنه ثم أمر بصلبه ولعمق تواضعه أبى أن يصلب إلا منكسًا، عكس طريقة صلب معلمه المسيح، وهذا ما ظهر في العديد من اللوحات الخالدة والتي صورت هذا المشهد الجلي.

أما رجلنا الآخر، فهو يهوذا الإسخريوطي، هو واحد من تلاميذ المسيح الاثني عشر، ويسمى أيضًا بيهوذا سمعان الإسخريوطي، اسمه يهوذا معناه بـ "العبرية الحمد".. ومن لقبه الإسخريوطي نستدل بأنه كان من مدينة تسمى قريوط أو قريوت تقع في جنوب مملكة يهوذا، والتي ذكرت في العهد القديم وقد تكون هي ذاتها خربة القريتين الكائنة على بعد أربعة أميال ونصف جنوب تل ماعين، أو قد يكون من مدينة موآب الحصينة المذكورة أيضا في العهد القديم.

كان المسيح قد أوكل ليهوذا الإسخريوطي مَهمة حفظ ماله ومال التلاميذ، فكان صندوق المال عنده وكان يسرق منه ويختلس الأموال، ثم اتفق يهوذا مع رؤساء كهنة اليهود، والذين كانوا يريدون التخلص من المسيح، حتى لا يقف أمام سلطانهم، على أن يسلم لهم المسيح مقابل ثلاثين قطعة من الفضة في مكانٍ خلاء؛ لأن اليهود كانوا يخشون القبض على المسيح في النهار أمام الجموع، حتى لا يثوروا ضدهم، وكان يهوذا بطبيعة الحال يعرف الأماكن التي اعتاد المسيح على الاختلاء بها بتلاميذه كبستان جثسيماني، وخلال العشاء الأخير، أعلن المسيح لتلامذته عن أن واحدًا منهم سيسلمه لحكم الموت، وكان المسيح يعلم بطبيعة الحال أن يهوذا هو من سيسلمه.. وهو ما حدث.

كان يهوذا يعرف بطبيعة الحال الأماكن التي اعتاد المسيح أن يختلي فيها بتلاميذه، فدل اليهود على مكانهم في بستان جثسيماني، وكان قد اتفق معهم مسبقًا بأن الذي سيقبله سيكون هو المسيح.

بعد أن ألقى اليهود القبض على المسيح، ندم يهوذا لأنه سلمه، وأعاد الفضة للكهنة وذهب وشنق نفسه، فابتاع رؤساء الكهنة بتلك الفضة حقل الفخاري الذي سمي "حقل الدم"، ليكتب بيده نهايته كواحد من أعظم الخونة على مرِّ التاريخ.

قد يرى البعض أننا أخطأنا بوضع بطرس ويهوذا بمنزلة الند بالند، على اعتبار أنه لا يجوز المقارنة بين بطرس الرسول، أحد أكبر المبشرين وناشري المسيحية، بيهوذا الإسخريوطي والذي سلم المسيح لأعدائه وباعه لهم بثمن بخس، إلا أنني عندما أردت التحدث عنهما، كان الغرض هو التوضيح أن اثنين من تلامذة المسيح المقربين، والذين يقعون في مرتبة عالية عندما سمح أحدهما لشيطانه بأن يسيطر عليه، كانت نهايته بوصمه كأحد كبار الخونة على مرِّ التاريخ، بينما كبَّل الآخر شيطانه ولم يسمح له بالاقتراب منه، فصار رمزًا لنشر الدين في العالم بأسره.

حمزة بن عبد المطلب وعمرو بن هشام

"رُدَّ ذلك عليَّ إنْ استطعت".

لطالما أعجبتني تلك الجملة والتي هتف بها سيد الشهداء وأسد الله حمزة بن عبد المطلب، بعد أن شج رأس عمرو بن هشام.. أيُّ قوةٍ وصلابةٍ وبأسٍ وثقة، كان يتمتع بها حمزة ليضرب أبا الحكم وسط أنصاره؟!، ثم يتحداه أن يرد عليه الضربة، قبل أن يعلن إسلامه على الملأ.

من الظلم أن نقول إن عمرو بن هشام أو "أبو جهل" ندٌ لأسد الله، ولكننا هنا نقارن بين موقفين: الأول لفارس نبيل كان يكفي ذكر اسمه لزلزلة أعتى القلوب بأسًا وقوةً وشجاعةً، وأصبح أحد كبار المجاهدين في سبيل الله، على الرغم من استشهاده المبكر، والآخر هو أحكم أهل قريش، ومع ذلك فقد حكمته وصار رمزًا للجهل والكفر.

تربَّى حمزة بن عبد المطلب في كنف والده عبد المطلب بن هاشم الذي كان سيد قريش وبني هاشم، كان حمزة في الجاهلية فتًى شجاعًا كريمًا سمحًا، وكان أشد فتى في قريش وأعزهم شكيمة، فقد شهد حرب الفجار التي وقعت بعد عام الفيل بعشرين سنة، وقد دارت بين قبيلة كنانة التي منها قريش وبين قبيلة قيس عيلان، وكانت حرب الفجار أول تدريب عملي لحمزة بن عبد المطلب، حيث مارس التدريب على استعمال السلاح، وتحمَّل أعباء القتال ومشقات الحروب.

أما عمرو بن هشام، فهو أحد سادة قريش وأحكمهم؛ ولأن عمرو بن هشام كان حكيمًا وذا رأي سديد فقد دخل دار الندوة، وهو لا يزال في الخامسة والعشرين من عمره، لذلك سمي "أبا الحكم"، وكانت دار الندوة لا يجتمع فيها إلا حكماء قريش وشيوخها الذين تجاوزوا

الخمسين من أعمارهم، فكان أبا الحكم، هو الاستثناء الوحيد من تلك القاعدة.

كان حمزة بن عبد المطلب، هو الذي خطب لابن أخيه محمد، خديجة بنت خويلد، فقد روي في الأثر القديم أن خديجة بعثت إلى الرسول محمد -عليه الصلاة والسلام، ثم عرضت عليه نفسها كزوجة، بعد أن لمست صدق وأمانة نسب أشرف الخلق، وكانت أوسط نساء قريش نسبًا وأعظمهم شرفًا وأكثرهن مالًا وعزًا، فلما قالت للرسول محمد ما قالت، ذكر ذلك لأعمامه، فخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب حتى دخل على خويلد بن أسد، فخطبها إليه فتزوجها الرسول محمد، وقيل إن حمزة خطبها من عمها أسد بن أسد، وقيل إن الذي زوجها من النبي محمد هو عمها عمرو بن أسد، وكان عمر الرسول حين تزوج خديجة خمس وعشرين سنة، وقيل إحدى وعشرين، وكان عمرها حينئذ أربعين سنة، وأقامت معه أربعًا وعشرين سنة، وكانت من كبار المساندين لدعوته وأول من أسلم من النساء.

عند ظهور الإسلام ونزول الرسالة السماوية على سيدنا محمد، كان عمه حمزة يرقبه في إعجاب شديد لثباته على موقفه، رغم الترغيب والترهيب الذي مارسه معه سادة قريش وأشرافها، وعلى الجانب الآخر فقد "أبا الحكم" حكمته وحلمه، فسماه عمه الوليد بن المغيرة "أبا جهل"، وذلك لسرعة غضبه، والجهل في لغة العرب ضد الحُلم، وهو العفو عند المقدرة، وقيل أيضًا إن رسول الله هو من سماه بهذا الاسم، لشدة عدائه له وللمسلمين كافة.

أسلم حمزة بن عبد المطلب في السنة الثانية من بعثة الرسول الكريم، وكان سبب إسلامه أن أبا جهل عمر بن هشام المخزومي

القرشي، اعترض الرسول عند جبل الصفا، فآذاه وشتمه ونال منه ما يكره من العيب لدينه والتضعيف له، فلم يكلمه الرسول ومولاه لعبد الله بن جدعان التيمي القرشي في مسكن لها فوق الصفا تسمع ذلك، ثم انصرف عنه فعمد إلى ناد لقريش عند الكعبة فجلس معهم، لم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل متوشحًا قوسه راجعًا من قنص له، وكان إذا فعل ذلك لا يمر على نادٍ من قريش، إلا وقف وسلم وتحدث معهم، وكان أعز قريش وأشدها شكيمة، وكان يومئذ ما زال مشركًا على دين قومه، فلما مرَّ بالمولاة قالت له: ما حدث لابن أخيه من أبي الحكم بن هشام، فاحتمل حمزة الغضب وخرج سريعًا لا يقف على أحد كما كان يصنع يريد الطواف بالبيت معدًا لأبي جهل أن يقع به، فلما دخل عليهم نظر إليه وهو جالس في القوم، فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه به وشج رأسه، حتى سالت الدماء منها وهو يقول: "أتسب محمدًا وأنا على دينه.. أقول ما يقول وأفعل ما يفعل.. ردَّ ذلك عليَّ إن استطعت".. قامت رجال من قريش من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل منه، فوقف أسد الله بينهم وأعلن إسلامه وقال الشهادة، وتم حمزة على إسلامه وعلى ما بايع عليه الرسول من قوله، فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن محمدًا، قد عز وامتنع، وأن حمزة سيمنعه فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه، خوفًا من حمزة.

بعد إسلام حمزة، قويت شوكة المسلمين، وأخذ حمزة يعلن دينه في كل مكان ويتحدى أبطال قريش ومنهم عمر بن الخطاب، حيث إن عمر بن الخطاب لما أراد أن يسلم أخذ سيفه، فتوشحه ثم عمد إلى الرسول وأصحابه فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب الرسول، فنظر من خلل الباب فرآه متوشحًا السيف فرجع إلى الرسول وهو فزع من عمر، فقال له حمزة أن يدخِله، وإذا

أراد شرًا فسيقتله بسيفه، فدخل عليهم عمر وأسلم فكبَّر سيدنا محمد تكبيرًا عرف أهل البيت، أن عمر قد أسلم، فتفرق أصحاب الرسول من مكانهم، وقد عزوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة.. هذه القصة تدل على شجاعة حمزة، فقد كان عمر مشهورًا بالشدة والبطش، وبعد إسلام عمر خرج المسلمون إلى شوارع مكة جهرة وكانوا بصفين، أحدهما يتقدمه عمر والثاني حمزة، فبإسلامهما عز الإسلام والمسلمون.

لم يستطع سادة قريش التعرُّض لنبي الله بعد ذلك، فكانت خطة القتل حين اقترح أبا الحكم أن يأخذوا من كل قبيلة فتًى شابًا جلدًا نسيبًا وسيطًا، ثم يعطوه سيفًا صارمًا، ثم يعمدوا إلى سيدنا محمد فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه فيتفرق دمه بين القبائل جميعًا، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا فرضوا بالدية، لكن الله -عز وجل- أنجى نبيه من تلك المكيدة الماكرة.

بعد هجرة الرسول إلى المدينة المنورة، آخى بين أصحابه من المهاجرين والأنصار، وقال: "تآخوا في الله أخوين أخوين".. ثم أخذ بيد على بن أبي طالب فقال: "هذا أخي".. فكان الرسول محمد وعلي بن أبي طالب أخوين، وكان حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة الكلبي، مولى الرسول أخوين.

شهد أسد الله حمزة بن عبد المطلب غزوة بدر، وأبلى فيها بلاءً عظيمًا، كان حمزة بن عبد المطلب هو الذي ابتدأ قتال المشركين في غزوة بدر، فقد خرج رجل من جيش قريش هو الأسود بن عبد الأسد المخزومي، فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فلما التقيا ضربه حمزة فأطن قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تشخب رجله دمًا نحو أصحابه، ثم حبا إليهم، فأتبعه حمزة فضربه حتى قتله

في الحوض.. ثم خرج بعده عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة، حتى إذا فصل من الصف، دعا إلى المبارزة فخرج إليه ثلاثة فتية من الأنصار، وهو عوف بن الحارث ومعاذ بن الحارث وعبد الله بن رواحة، فرفض فرسان قريش مقاتلتهم، وطلبوا من سيدنا محمد أن يرسل آخرين، فقام لهم عبيدة بن الحارث وعلي بن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب، فبارز عبيدة، وكان أسن القوم عتبة بن ربيعة.. وبارز حمزة شيبة بن ربيعة.. وبارز على الوليد بن عتبة فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله، وأما علي فلم يمهل الوليد أن قتله، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين، فكر حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة، فأسرعا بقتله.

أما عمرو بن هشام أو أبا جهل، فقتل يوم بدر على يد معوذ ومعاذ أبناء عفراء، وقد كانا في حوالي السادسة عشر من عمرهما، وأجهز عليه عبد الله بن مسعود، حيث قطع ابن مسعود رأسه وحمله إلى رسول الله، وقد قطعت أذنه فضحك الرسول وقال: "أذنٌ بأذن والرأس زيادة"، حيث قطع أبو جهل ذات مرة أذن ابن مسعود.

استمر أسد الله في جهاده بعد ذلك حتى استشهاده يوم أحد على يد العبد وحشي، ليبكيه رسول الله صلوات ربي وسلامه عليه هو والمسلمين جميعًا.. رحم الله سيد الشهداء وجمعنا به على خير.

عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد

كم كانت الكتابة صعبة في هذا الفصل، أن نتحدث عن الفاروق وسيف الله المسلول ونحاول كشف تلك العلاقة المتوترة التي كانت بين الطرفين، وهما من هما، لهو أمر من الصعاب.

الفاروق عمر بن الخطاب.. ثاني الخلفاء الراشدين وأحد المبشرين العشرة بالجنة، وأول من لُقِّب بأمير المؤمنين وهو الإنسي الوحيد الذي خشى منه إبليس، أسلم قبل الهجرة وهاجر مجاهرًا في الصباح والشمس تتوسط السماء.

أما سيف الله المسلول خالد بن الوليد، فقد أسلم في العام الثامن من الهجرة بعد صلح الحديبية بصحبة صديقه عمرو بن العاص، يعد أحد قادة الجيوش القلائل في التاريخ الذين لم يهزموا في معركة طوال حياتهم، فهو لم يهزم في أكثر من مئة معركة أمام قوات متفوقةً عدديًّا من الإمبراطورية الرومية البيزنطية والإمبراطورية الساسانية الفارسية وحلفائهم، بالإضافة إلى العديد من القبائل العربية الأخرى، حتى المعارك التي خاضها ضد المسلمين قبل إسلامه لم يخسرها، اشتهر خالد بانتصاراته الحاسمة في معارك اليمامة، وأُليس والفراض، وتكتيكاته التي استخدمها في معركتي الولجة واليرموك

عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد مرتين، في المرة الأولى عن القيادة العامة وإمارة الأمراء بالشام، وكانت هذه المرة في السنة الثالثة عشرة من الهجرة، غداة تولي عمر الخلافة بعد وفاة أبي بكر الصديق مباشرةً، وسبب هذا العزل اختلاف منهج الصديق عن الفاروق في التعامل مع الأمراء والولاة؛ فالصديق كان من سنته مع عماله وأمراء عمله، أن يترك لهم حرية التصرف كاملةً في حدود النظام العام للدولة، مشروطًا ذلك بتحقيق العدل كاملًا بين الأفراد والجماعات، ثم

لا يبالي أن يكون لواء العدل منشورًا بيده أو بيد عماله وولاته، فللوالي حقٌ يستمده من سلطان الخلافة في تدبير أمر ولايته دون رجوع في الجزئيات إلى أمر الخليفة، وكان أبو بكر لا يرى أن يكسر على الولاة سلطانهم في مال أو غيره ما دام العدل قائمًا في رعيتهم، وكان الفاروق قد أشار على الصديق بأن يكتب لخالد أن لا يعطي شاة ولا بعيرا إلا بأمره.. فكتب أبو بكر إلى خالد بذلك فكتب إليه خالد قائلًا: "إما أن تدعني وعملي وإلا فشأنك وعملك.. فأشار عليه عمر بعزله، ولكن الصديق أقر خالد على عمله.. ولما تولى الفاروق الخلافة كان يرى أنه يجب على الخليفة أن يحدد لأمرائه وولاته طريقة سيرهم في حكم ولاياتهم، ويحتم عليهم أن يردوا إليه ما يحدث حتى يكون هو الذي ينظر فيه ثم يأمرهم بأمره وعليهم التنفيذ؛ لأنه يرى أن الخليفة مسئولٌ عن عمله وعن عمل ولاته في الرعية، مسؤوليةً لا يرفعها عنه أنه اجتهد في اختيار الوالي، فلمَّا تولَّى الخلافة، خطب الناس فقال: "إن الله ابتلاكم بي وابتلاني بكم، وأبقاني بعد صاحبي، فوالله لا يحضرني شيء من أمركم فيليه أحد دوني ولا يتغيب عني فآلوا فيه عن الجزء والأمانة، ولئن أحسن الولاة لأحسنن إليهم ولئن أساؤوا لأنكلنَّ بهم".. فرضي بعضهم وأبى آخرون، وكان ممن أبى عليه ذلك خالد بن الوليد، فعزل عمر خالد من وجهة سياسة الحكم، وحق الحاكم في تصريف شؤون الدولة ومسؤوليته عنها.

استقبل خالد هذا العزل دون اعتراض، وظل سيف الله تحت قيادة أبي عبيدة، حتى فتح الله عليه قنسرين، فولاه أبو عبيدة عليها، وكتب إلى أمير المؤمنين يصف له الفتح وبلاء خالد فيه فقال عمر قولته المشهورة: "أمر خالد نفسه، رحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال مني"، ويعني عمر بمقولته هذه أن خالد فيما أتى به من أفانين الشجاعة وضروب البطولة، قد وضع نفسه في موضعها الذي

آلفته في المواقع الخطيرة من الإقدام والمخاطرة، وكأنما يعني عمر بذلك، أن استمساك أبي بكر بخالد وعدم موافقته على عزله، برغم الإلحاح عليه، إنما كان عن يقين في مقدرة خالد وعبقريته العسكرية التي لا يغني غناءه فيها، إلا آحاد الأفذاذ من أبطال الأمم. أحسن أبو عبيدة بن الجراح معاملة خالد، فلازم صحبته وأخذ بمشورته واستعان بالله ثم به في المعارك الكبيرة، وقد صفت نفس خالد لأخيه أبي عبيدة، وظل تحت إمرته أربع سنوات لم يخالفه فيها.

لم يكن عزل خالد في هذه المرة الأولى عن شك من الخليفة ولا عن ضغائن جاهلية ولا عن اتهامه بانتهاك حرمات الشريعة، ولا عن طعن في تقوى وعدل خالد.. ولكن كان هناك منهجان لرجلين عظيمين وشخصيتين قويتين، كان يرى كل منهما ضرورة تطبيق منهجه، فإذا كان لا بد لأحدهما أن يتنحى، فلا بد أن يتنحى أمير الجيوش لأمير المؤمنين من غير عناد ولا حقد وضغينة.

إن من توفيق الله تعالى للفاروق، تولية أبي عبيدة لجيوش الشام.. فذلك الميدان بعد معركة اليرموك كان يحتاج إلى المسالمة واستلال الأحقاد وتضميد الجراح وتقريب القلوب، فأبو عبيدة يسرع إلى المسالمة إذا فتحت أبوابها ولا يتباطأ عن الحرب إذا وجبت عليه أسبابها، فإن كانت بالمسالمة جدوى، فذاك، وإلا فالاستعداد للقتال على أهبته، وقد كان أبناء الأمصار الشامية يتسامعون بحلم أبي عبيدة، فيقبلون على التسليم إليه ويؤثرون خطابهم له على غيره، فولاية أبي عبيدة سنة عمرية، وكانت ولايته للشام في تلك المرحلة أصلح الولايات لها.. أما خالد فقد عرف عنه بعض القسوة في تعاملاته، ولعل ما فعله مع هرمز وقارن ومالك بن قيس وسجاح وغيرهم، ما يؤكد ذلك، وإن كانت القسوة واجبة مع بعض الأشخاص في الحروب، فمثلًا عندما يحارب جيش مسيلمة الكذاب، بلين ورفق؟

جاء العزل الثاني لخالد من قبل الفاروق في السنة السابعة عشرة، فقد بلغ أمير المؤمنين أن خالد وعياض بن غنم أدربا في بلاد الروم وتوغلا في دروبهما ورجعا بغنائم عظيمة، وأن رجالًا من أهل الآفاق قصدوا خالد لمعروفه، منهم رجل يدعى الأشعث بن قيس الكندي.. فأعطاه خالد عشرة آلاف.. وكان عمر لا يخفى عليه شيء في عمله، فبلغه في المدينة خبر جائزة خالد للأشعث، فكتب عمر إلى أبي عبيدة أن يستقدم خالد وهو مقيد بعمامته، حتى يعلم آجاز الأشعث من ماله أم من مال المسلمين، فإن زعم أنها من مال المسلمين، فتلك خيانة للأمانة، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف، وفي كلتا الحالتين يعزل خالد من قيادته للجيوش.

تحير أبو عبيدة فلم يستطع تنفيذ أمر الفاروق في سيف الله المسلول، فترك تنفيذ تلك المهمة لبلال بن رباح رسول الخليفة بالكتاب، أرسل أبو عبيدة يستدعي خالد من قنسرين، ثم جمع الناس وسأل بلال خالد عما إذا كانت جائزته للأشعث من ماله أم من مال المسلمين؟.. فأجاب خالد أنها من ماله الخاص، فأعلنت براءته، ليفاجئ أبو عبيدة خالد بأن الخليفة قد عزله، وأنه مأمورٌ بالتوجه للمدينة المنورة على الفور.

ذهب خالد للمدينة للقاء عمر، محتجًا على ما اعتبره ظلمًا، إلا أن عمر أصر على قراره، كثر اللغط في الأمصار حول عزل عمر لخالد، فأذاع عمر في الأمصار أنه لم يعزل خالد عن سخطٍ ولا خيانة، ولكن الناس فتنوا به فخاف أن يوكلوا إليه ويبتلوا به، فأحب أن يعلموا أن الله هو الصانع وألا يكونوا بعرض فتنة.. وكانت تلك هي نهاية مسيرة خالد العسكرية.

اعتزل خالد الحياة العسكرية حتى توفاه الله في العام الحادي والعشرين من الهجرة بحمص، وقيل إن الفاروق قد حضر جنازته، وبكى عليه كثيرًا.

كان هذا هو ما حدث بين الرجلين العظيمين.. هناك روايات تسرد أن الخلاف أكبر مما قيل؛ لأن خالد قد كسر ساق عمر قديمًا وهم صغار، وكان خالد ابن خال عمر فلم ينسها له عمر، وهناك من يقول إن عمر قد حاول عزل خالد أكثر من مرة في عهد أبي بكر الصديق بحجة قسوته وكثرة القتلى في معاركه، ولكن "الصديق" لم يوافق على ذلك، فعزله عمر عندما تولَّى الخلافة.. وهناك من يقول إن خالد كان متفوقًا على عمر أيام الجاهلية، فعندما أتى الإسلام وأسلم عمر مبكرًا، أصبح متفوقًا على خالد والذي أسلم متأخرًا،

كلها مجرد روايات وأقاويل، فقط نقول كلمةً أخيرة:

هذان رجلان عظيمان.. وصحابيان جليلان.. ومهما كان ما حدث بينهما، فهما في النهاية بشر.. أعلى منَّا بمراحل عند الله، عز وجل.. ولكنهما بشر بكل ما في النفس البشرية من طباع.

عثمان بن عفان وعمرو بن العاص

ليسا ندًا بند بالمعنى المفهوم، فأحدهما هو خليفة المسلمين والآخر قائد عربي عظيم ووال معزو من منصبه.. إلا أن القائد عندما عزل اتخذ الخليفة ندًا له.

الخليفة هو ذو النورين عثمان بن عفان، والقائد هو عمرو بن العاص.

ولد عثمان بن عفان في الطائف، وقيل في مكة بعد عام الفيل بست سنين.. هو من بطن بني أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وهم من كبار سادات قريش وأبوه عفان ابن ع.م أبي سفيان بن حرب، وهو أحد المبشرين العشرة بالجنة، كان عثمان غنيًا شريفًا في الجاهلية، ومن أحكم قريش عقلًا وأفضلهم رأيًا، كما كان محبوبًا من قبلهم، وهو لم يسجد لأي صنم طوال حياته، كما أنه لم يشرب الخمر لا في الجاهلية ولا في الإسلام، كما أنه قد كان على علمٍ بمعارف العرب في الجاهلية من الأنساب والأمثال وأخبار الأيام، وقد رحل إلى الشام والحبشة وعاشر أقوامًا غير العرب، فعرف من أحوالهم وأطوارهم ما ليس يعرفه غيره من قومه.. اهتم بالتجارة التي ورثها عن والده ونمت ثرواته، وأصبح يعد من رجالات بني أمية الذين لهم مكانة في قريش كلها، فكان كريمًا جوادًا، وكان من كبار الأثرياء، وقد نال مكانةً مرموقةً في قومه ومحبةً كبيرةً منهم.. وقد كان يكنى في الجاهلية أبا عمرو، فلما جاء له ولده عبد الله من رقية بنت النبي محمد، كناه المسلمون أبا عبد الله.. وكان عثمان يلقَّب بذي النورين، لزواجه من رقية، ومن ثم أم كلثوم بنتا النبي محمد صلوات ربي وسلامه عليه.

أما عمرو بن العاص، فهو ابن، العاص بن وائل، أحد سادة قريش والذي سلط الله عليه شوكة من باطن الأرض مات بسببها.. نشأ في

مكة وكان من دواهي العرب وأكبر تجارها.. تأخَّر إسلام عمرو قليلًا، حيث أسلم في العام الثامن من الهجرة بصحبة رفيق دربه وصديقه خالد بن الوليد، وأصبح من كبار قادة المسلمين

حينما تولَّى عثمان الخلافة عقب مقتل الفاروق عمر بن الخطاب أقر الولاة الذين قد تم تعيينهم من قبل عمر ولاياتهم عامًا كاملًا، بعد ذلك أبقى البعض وعزل آخرين وعمل على التعيين في هذه الأمصار حسب الحاجة، وذلك بعد الأخذ بمشورة الصحابة.. وكان من ضمن من عزلهم هو عمرو بن العاص والي مصر وعين مكانه عبد الله بن سعد بن أبي سرح.

مصر جبهة مفتوحة إلى إفريقية، حيث لم يقصر عمرو في غزوها لفتحها والعودة من غزواته محملًا بالغنيمة متوليًا مَهمة فتح البلدان المجاورة طيلة سنين، إلا أن عثمان سرعان ما قرر كف عمرو بن العاص عن غزو إفريقية، وأرسل جيشًا لا يذعن لسلطان الوالي بمصر، وإنما يتصل بالمدينة متخطيًا عمرو بالعاص على غير المألوف والعادة، حيث إن قادة الأمصار هم من يتولون قيادة الغزوات والفتوحات عادة، وكان المكلف بقيادة هذا الجيش عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وهو أخ عثمان بالرضاعة، ووعده بأنه لو استطاع فتح إفريقية فله خمس الخمس من الغنيمة.

غضب عمرو وهاج لهذا التهميش وأحس بالغدر من عثمان، لأن عثمان قد خص به عن نظرائه من العمال فلم يكن عثمان يرسل الجيوش من قبله مباشرةً إلى الثغور، وإنما كان ذلك إلى العمال، حيث يغزو معاوية الروم ويغزو عامل البصرة والكوفة فارس.

نجح عبد الله بن أبي سرح في فتح الأراضي الواسعة من إفريقية والمجيء منها بعظيم الغنائم، وما إن انتهى من غزوه ولاه عثمان خراج

مصر تاركًا لعمرو بن العاص مسؤوليتها العسكرية، وكان لا بد من حدوث الاختلاف بين عمرو وعبد الله، فكتب كلاهما إلى عثمان يشكو الآخر، وما كان من عثمان إلَّا أن عزل عمرو بن العاص عن مصر، وسلَّم عبد الله بن أبي سرح إمارة مصر.

لم يكن عبد الله بن سعد بن أبي سرح رجل صدق، ولم يكن المسلمون يرضون عنه، فهو كان من الذين اشتدوا على النبي وأسرفوا في السخرية منه، وقد ارتد بعد إسلامه وادَّعى كشفه عن زيف نبوة محمد، وأحل الرسول دمه وأمر المسلمين بقتله حتى وإن أمسك بتلابيب الكعبة، وكاد يقتله عند فتح مكة لولا شفاعة عثمان له وإعلان إسلامه، ولا يوجد شك في كون سيرة عبد الله في مصر، قد أصابت أهلها بالسخط عليه.. فقد كان يكلفهم فوق ما يطيقون ويتحملون ويتشدد عليهم حتى شكوه إلى عثمان، فكتب عثمان له يأمره بالرفق في رعيته فلم يحفل بذلك، وإنما عاقب الذين شكوه وضرب منهم رجلًا حتى قتله، وبذلك غضب أهل مصر غضبًا عظيمًا وغضب معهم أعيان الإسلام في المدينة، ولهذا الأمر كان التمرد ضد ابن أبي سرح.

عندما خرجت الإسكندرية من سيطرة الروم، عملوا على تحريض من بالإسكندرية من الروم على التمرد والخروج على سلطان المسلمين، وصادف هذا التحريض رغبةً عند سكانها، فاستجابوا للدعوة وكتبوا إلى قسطنطين بن هرقل، يخبرونه بقلة عدد المسلمين، ويصفون له ما يعيش فيه الروم بالإسكندرية من الذل والهوان، وخلال ذلك، وصل منويل الخصي، قائد قوات الروم، إلى الإسكندرية، ومعه قوات يحملهم في ثلاثمائة مركب مشحونة بالسلاح والعَتاد، علم أهل مصر بأن قوات الروم قد وصلت إلى الإسكندرية فكتبوا إلى عثمان يطلبون إعادة عمرو بن العاص ليواجههم، فاستجاب الخليفة لطلب

المصريين، وأعاد ابن العاص أميرًا على مصر، نهب منويل وجيشه الإسكندرية، ومن ثَم خرج بجيشه يقصد مصر السفلى، دون أن يخرج إليهم عمرو أو يقاومهم أحد، وتخوف بعض أصحابه، أما عمرو فقد رأى أن يتركهم يقصدونه.

وصل منويل إلى نقيوس واستعد عمرو للقائه، تقابل الجيشان عند حصن نقيوس على شاطئ نهر النيل، وخلال المعركة أصاب فرسه سهم، فقتله، فترجل عمرو، وانضم إلى صفوف المشاة، ورآه المسلمون فأقبلوا على الحرب، وخرج المصريون بعد أن رأوا هزيمة الروم يصلحون للمسلمين ما أفسده العدو الهارب من الطرق، ويقيمون لهم ما دمره من الجسور، وأظهر المصريون فرحتهم بانتصار المسلمين على العدو الذي انتهك حرماتهم واعتدى على أموالهم وممتلكاتهم، وقدموا للمسلمين ما ينقصهم من السلاح والمؤونة.

لما وصل عمرو الإسكندرية ضرب عليهم الحصار ونصب عليها المجانيق، فضرب أسوار الإسكندرية حتى سيطروا عليها، ودخل المسلمون الإسكندرية، وكان منويل في عداد القتلى، ولما فرغ المسلمون أمر عمرو ببناء مسجد في المكان، الذي أوقف فيه القتال وسماه مسجد الرحمة، فرجع إليها من كان قد فر منها، وعاد الأنبا بنيامين بطريرك القبط إلى الإسكندرية، بعد أن فرَّ مع الفارين وأخذ يرجو عمرو ألا يسيء معاملة القبط؛ لأنهم لم ينقضوا عهدهم ولم يتخلوا عن واجبهم ورجاه كذلك، ألا يعقد صلحًا مع الروم وأن يدفنه إذا مات في كنيسة يحنس، وشكر المصريون عمرو على تخليصهم من ظلم الروم وطالبوه بإعادة ما نهب من أموالهم ودوابهم من قبل الروم معلنين ولاءهم وطاعتهم، فطلب منهم عمرو أن يقيموا البينة على ما ادعوا ومن أقام بينة وعرف من له بعينه رده عليه، وهدم عمرو سور الإسكندرية وصالح أهل تلك البلاد على الجزية.

بعد عودة مصر وتحريرها من الرومان، عرض عثمان على عمرو أن يستمر في حكم مصر بشراكة ابن أبي سرح، ولكن عمرو رفض وعاد إلى المدينة، وهو ناقم على الخليفة الذي لم يقدِّر جهوده في دحر الرومان وتحرير مصر منهم للمرة الثانية.

بدأت أحداث الفتنة في النصف الثاني من ولايته، وهي التي أدت إلى استشهاده، ومن أسباب تلك الفتنة الرخاء في عهده وأثره في المجتمع، وطبيعة التحول الاجتماعي وظهور جيلٍ جديدٍ غير جيل الصحابة، بالإضافة إلى الشائعات والعصبية الجاهلية، ومن أهم الأسباب خوض المنافقين، حيث وجدوا من يستمع إليهم وكذلك تولية معظم أقارب عثمان الولاية في البلاد المفتوحة كمعاوية في دمشق وابن أبي سرح في مصر، وازدياد نفوذ مروان بن الحكم بصورة أغضبت جميع الصحابة القدامى.

وفق معتقد أهل السنة، فإن المدبِّر الرئيسي للفتنة هو عبد الله بن سبأ، الذي كان يهوديًّا، وأظهر الإسلام في عهد عثمان، ومنهم من عمل على محاصرة عثمان بن عفان في داره وزوروا عليه كتابًا ورد فيه بأنه يريد قتلهم بعد أن أعطاهم الأمان على أنفسهم، وعندما اشتد أمر أهل الفتنة وتهديدهم للخليفة بالقتل تحرّك الصحابة لردهم وقتالهم، وهو ما رفضه عثمان، وأمر بألا يرفع أحد السيف للدفاع عنه، وأن لا يقتل أحدًا بسببه فقد كان يعلم بأنهم لا يريدون أحد غيره، فكره أن يحتمي بالمؤمنين وأحب أن يقيهم بنفسه، ولعلمه بأن هذه الفتنة فيها قتله كما قال رسول الله من قبل.

بينما تقول الرواية الشيعية: إن أهل المدينة كانوا من الثائرين على عثمان وبعضهم غير مناصر له، وأنهم كتبوا إلى الأمصار بالقدوم إلى المدينة وأن الجهاد فيها، ويرون بأن هناك من الصحابة من هم قد

خرجوا على عثمان ولم ينصروه، فأرسل إلى معاوية بن أبي سفيان ليقاتلهم، ولكنه لم يبعث بجيشٍ إلى نصرة الخليفة عثمان، وقد علل ذلك بأنه كره مخالفة أصحاب النبي، كما يرى الشيعة، بأنه لا وجود لعبد الله بن سبأ من الأساس.

كانت المعارضة تشتد في الولايات، وتصل أصداؤها إلى المدينة، وتشتد في المدينة، فيصل أصداؤها إلى الولايات البعيدة فتزداد جرأة، حتى كتب أصحاب الرسول المقيمين في المدينة، إلى أصحابهم خارج المدينة بالقدوم إليها لتصحيح ما أعوج من أمور الخلافة، فتكاثر الناس واجتمعوا في المدينة ولاموا عثمان على سياسته، ثم كلفوا الإمام على بن أبي طالب أن يدخل على عثمان، ويحادثه في ذلك الأمر.

بعد هذه المقابلة، خطب عثمان في الناس ينذرهم ويحذرهم، ثم ذهب إلى بعض من اللين، ولكنه بقي على موقفه، ورغم أن علي بن أبي طالب لم يكن راضيًا على ما كان يفعله عثمان، إلا أنه وضع في ذلك اليوم ولديه الحسن والحسين أمام بيت عثمان ليقوما بحمايته، أرسل بعدها عثمان يطلب قدوم معاوية وعبد الله بن أبي سرح وعبد الله بن عامر وسعيد بن العاص إلى المدينة للاجتماع بهم، استشارهم عثمان عند قدومهم في كيفية التعامل مع المعارضة، فأشار له معاوية بأن يترك التعامل مع المعارضة على عاتق الولاة، وأشار له سعيد بقتل قادة المعارضة، بينما أشار له عبد الله بن أبي سرح بأن يرشوهم من المال ليسكتوا، فيما أشار إليه عبد الله بن عامر أن يشغل المسلمين في الحرب والفتوحات، فعمل عثمان برأي عبد الله بن عامر.

ما إنْ دخل العام الخامس والثلاثون من الهجرة، حتى ثار أهل الكوفة على حاكمهم سعيد، وطلبوا أن يولى عليهم أبو موسى الأشعري، وظهر للناس بأن الثورة هي الطريق الوحيد لتنفيذ مطالبهم من الخليفة.

لم يكن للمصريين حلٌ سوى أن يرسلوا وفدًا إلى المدينة يطلبوا فيه من عثمان كف ابن أبي سرح عن التسلط على رقاب المسلمين ومقدَّراتهم، فخرجوا بوفدٍ ضخمٍ متظاهرين أنهم يريدون العمرة، فأرسل لهم عثمان جماعة من المهاجرين والأنصار على رأسهم علي بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة الأنصاري، ليلتقوا بهم في قرية خارج المدينة، فخرج لهم علي ومن معه، فوعدهم على لسان عثمان أن ينفذ مطالبهم، وقدم وفد منهم إلى عثمان في داخل المدينة، فخطب بهم وأثنى عليهم، وأعطى التوبة واستغفر الله وبكى، وبكى الناس ورضوا بما قطعه عثمان على نفسه من عهود، وغادر وفد المصريين المدينة عائدين إلى ديارهم.

ما إنْ عادت وفود المصريين إلى مصر، حتى تلقَّاهم عبد الله بن أبي سرح بعد أن عرف بأمرهم فضرب رجلًا منهم فقتله، ومرَّت الأيام دون أن يعزَل عبد الله بن أبي سرح، فتواعد المصريون مع أهل الكوفة والبصرة للقدوم إلى المدينة، بعد أن استيأسوا من وفاء الخليفة بعهوده، فتحركوا في شَوال من نفس العام صوب المدينة، وما إن وصلت وفود المعارضين إلى ضواحي المدينة، طلب عثمان من علي أن يخرج لهم مرةً أخرى، فأبى علي ورفض أمر الخليفة، وأبى كذلك محمد بن مسلمة وقال: "لا أكذب الله في السنة مرتين".

انتهى الأمر بعزل ابن أبي سرح، وتولية محمد بن أبي بكر، فأرسله إلى مصر ومعه جمعٌ من الصحابة، وعندما كان محمد بن أبي بكر، ومن معه في الطريق إلى مصر أزعجهم رجل يركب بعيرًا، فأوقفوه بعد أن شكوا فيه، وظهر أنه مبعوث من عثمان إلى والي مصر، ويحمل معه كتابًا له، ففتحوا الكتاب المختوم ليجدوا فيه أمرًا من الخليفة إلى عبد الله بن أبي سرح، يدعوه فيه إلى قتل المعارضين الذين قدموا إلى المدينة.

أرسل المصريين إلى أهل العراق الذين تفرقوا عنهم يرجعوهم إلى المدينة ودخلوا المدينة بسرعة، حتى فاجئوا من فيها، فذهبوا إلى عثمان وقالوا له: "هل هذا غلامك؟".. وهم يقصدون حامل الكتاب.. فقال: "نعم إنه غلامي وانطلق بغير علمي"، فسألوه: "هل هذا جملك؟"، فأجاب: "أخذه من الدار بغير أمري"، فسألوه مرةً أخرى: "هل هذا خاتمك؟"، فأجابهم: "نقش عليه"، فقالوا له: "إن لم تكتب أنت الكتاب فسلمنا من كتبه".

وهنا ارتفعت مطالب المعارضين الذين تحولوا إلى ثوار، فطالبوا بأن يعزل عثمان نفسه، وأن يولي كبار صحابة المسلمين خليفةً جديدًا بدلًا عنه.. فرفض عثمان ذلك، فما كان من الثوار إلا الاعتصام في المدينة، حتى تنفذ مطالبهم، وكانوا خلال ذلك لا يضايقون عثمان وكانوا يصلون وراءه، حتى كتب عثمان إلى ولاته كتابًا يدعوهم فيه إلى إرسال مقاتلين حتى ينصروه على الثوار، فعلم الثوار بأمر الكتاب، فبدأ الحصار وتغيرت سيرتهم مع عثمان، فخرج عثمان على المنبر يلعن الثوار، فتشاجر القوم بالأيدي، حتى ضرب عثمان فسقط مغشيًا عليه، وحمل إلى بيته وضرب الثوار حصارًا على بيته، ومنعوه من الخروج منه.

أخذت الأمور تصل إلى حدتها بالتأزم عندما قتل أحد الثوار وهو نيار بن عياض الأسلمي، عندما رمي أحد المحاصرين في دار عثمان سهمًا نحوه.. وقيل أن رامي السهم كان مروان بن الحكم.. فقالوا لعثمان عند ذلك: "ادفع إلينا قاتل نيار بن عياض فلنقتله به".. فقال لهم: "لم أكن لأقتل رجلًا نصرني وأنتم تريدون قتلي".. حتى بلغ الأمر ذروته، فاقتحم الثائرون الدار.

في تلك الليلة صلى عثمان، رضي الله عنه، صلاةً نافلةً ختم فيها سورة طه، ثم جلس بعد ذلك يقرأ في المصحف، في هذا الوقت كان أهل الفتنة يفكرون بشكلٍ حاسمٍ وسريع في قتل عثمان، خاصةً مع علمهم باقتراب الجيوش الإسلامية المناصِرة للخليفة.

دخل رجلٌ يدعى كنانة بن بشر التجيبي، وكان من رءوس الفتنة، بشعلةٍ من نارٍ وحرق باب بيت عثمان ودخل ومعه بعض رجال الفتنة، ثم دخل رجل آخر يسمونه "الموت الأسود". قيل إنه عبد الله بن سبأ، وقيل غيره، فخنق عثمان بن عفان خنقًا شديدًا، حتى ظن أنه مات فتركه وانصرف، ودخل بعد ذلك محمد بن أبي بكر الصديق، وكان يظنه قد مات فوجده حيًّا، فقال له: "على أي دين أنت يا نعثل؟ ([1])، فقال عثمان: "على دين الإسلام، ولست بنعثل، ولكني أمير المؤمنين".. فقال له محمد: "غيرت كتاب الله"، فرد عليه عثمان: "كتاب الله بيني وبينكم"، فتقدم إليه ابن أبي بكر وأخذ بلحيته وهزه منها قائلًا: "إنا لا نقبل أن نكون يوم القيامة مما يقول: (رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ)"، فقال عثمان حينها: "يا ابن أخي، إنك أمسكت لحيةً كان أبوك يكرمها".

فلما قال له عثمان ذلك، وضحت الحقيقة فجأة أمام محمد بن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، وكأن عثمان أزال بهذه الكلمات غشاوةً كانت تحجب الحق والصواب عن قلب محمد بن أبي بكر، وتذكر تاريخ عثمان مع رسول الله ومع أبيه الصديق ومع المسلمين، فاستحى محمد بن أبي بكر وخارت يده من على لحية عثمان بن عفان، وبكى، ثم وقف وتركه وانصرف، فوجد القوم يدخلون على عثمان فأمسك سيفه وبدأ يدافع عن عثمان، ولكنهم غلبوه فلم يستطع أن يمنعهم، ويشهد بذلك السيدة نائلة بنت الفرافصة زوجة عثمان، رضي الله عنه.

ثم دخل على عثمان كنانة بن بشر، وحمل السيف وضربه به، فاتقاه عثمان بيده، فقطع يده ليتقاطر الدم على المصحف، وتثبت جميع الروايات أن هذه الدماء سقطت على كلمة (فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ).

---

[1] "نعثل" سُبة تقال للشيخ الأحمق وللظبي كثير الشعر.

بعد ذلك حمل عليه كنانة بن بشر وضربه بعمود على رأسه، فخر عثمان على جنبه وهم كنانة بالسيف ليضربه في صدره، فانطلقت السيدة نائلة بنت الفرافصة تدافع عن زوجها، ووضعت يدها لتحمى زوجها من السيف فقطعت بعض أصابعها بجزء من كفها، ووقعت السيدة نائلة على الأرض.

طعن كنانة عثمان مرةً أخرى في صدره، ثم قام سودان بن حمران بحمل السيف، وطعن عثمان، فمال عثمان إلى الأرض فقفز على بطنه واتكأ على السيف بجسده، ليتأكد من اختراق السيف لجسد عثمان حتى مات "ذو النورين" بعد هذه الضربة.. ثم قفز عليه عمرو بن الحمق وطعنه في صدره تسع طعنات وقال: "هذه الثلاثة الأولى لله.. وهذه الست لشيء في نفسي".

استشهد "ذو النورين" عثمان، رضي الله عنه وأرضاه، زوج ابنتي الرسول، صلى الله عليه وسلم، والمبشَّر بالجنة، وثالث الخلفاء الراشدين.

كان عمرو بن العاص في هذه الفتنة يبدو بالصامت، إلا أن هناك العديد من الروايات والتي لم تثبت صحتها، كانت تقول إن عمرو كان يحرض على عثمان لغضبه منه بعد أن عزله عن ولاية مصر، وتولية ابن أبي سرح.

اتخذت الفتنة أبعادًا أخرى بعد ذلك، حيث خرج العديد من الصحابة مطالبين بثأر عثمان، لتتخذ الفتنة أبعادًا جديدة.

في النهاية.. اعتذر من الجميع عن عدم ذكري لكل أحداث الفتنة كما حدثت؛ فالموضوع صعب وشائك على الجميع، فقط أتذكر كلمةً سمعتها من قبل تقول: إننا نتقرب إلى الله عز وجل بعدم الخوض في أمر الفتنة، وقانا الله شرها ونارها.

علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان

"أخان تشاجرا.. فما بالك تدخل فيما بينهما وتعلي من نباحك.. إن لم تخرس نباحك، أرسلت إليك بجيش أوله عندك وآخره عندي، يأتونني برأسك أقدِّمه لعلي".

كان هذا هو الرد الذي تلقَّاه قيصر الروم من معاوية بن أبي سفيان، عندما عرض عليه أن ينصره على علي بن أبي طالب في الحرب التي وقعت بينهما، وكان قد تلقَّى رفضًا مماثلًا من علي على نفس العرض.

الأخان المتشاجران.. الأول هو علي بن أبي طالب، ابن عم رسول الله، صلوات ربي وسلامه عليه، وأول من أسلم من الفتية، وزوج ابنة الرسول فاطمة الزهراء، ووالد سيدَي شباب أهل الجنة الحسن والحسين، وأحد العشرة المبشرين بالجنَّة.

أما الثاني فهو معاوية بن أبي سفيان.. ابن سيد قريش أبا سفيان ابن حرب وهند بنت عتبة، أسلم يوم فتح مكة وقيل إنه أسلم قبلها بسنوات وكتم إسلامه، كتب الوحي بين يدي الرسول، وشارك في العديد من الغزوات، حتى ولاه الفاروق عمر بن الخطاب ولاية الكوفة، ثم ضم إليه فيما بعد دمشق وما حولها.

بعد حدوث الفتنة الإسلامية الكبرى، ومقتل عثمان بن عفان، بايع كبار الصحابة الإمام علي بن أبي طالب لخلافة المسلمين، وانتقل إلى الكوفة ونقل عاصمة الخلافة إلى هناك، وبعدها انتظر بعض الصحابة أن يقتص الإمام من قتلة عثمان، لكنه أجَّل هذا الأمر وينقسم سبب تأجيل هذا الأمر لرؤية طرفين اثنين.

يرى أهل السنة أن علي بن أبي طالب، لم يكن قادرًا على تنفيذ القصاص في قتلة عثمان، مع علمه بأعيانهم، وذلك لأنهم سيطروا على مقاليد الأمور في المدينة النبوية، وشكَّلوا فئةً قويةً ومسلحة كان من الصعب القضاء عليها، لذلك فضَّل الانتظار ليتحين الفرصة المناسبة للقصاص، ولكن بعض الصحابة وعلى رأسهم طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام رفضوا هذا التباطؤ في تنفيذ القصاص، ولما مضت أربعة أشهر على بيعة علي دون أن ينفذ القصاص، خرج طلحة والزبير إلى مكة والتقوا بأم المؤمنين عائشة، التي كانت عائدة من أداء فريضة الحج، واتفق رأيهم على الخروج إلى البصرة، ليلتقوا بمن فيها من الخيل والرجال ليس لهم غرض في القتال، وذلك تمهيدًا للقبض على قتلة عثمان، وإنفاذ القصاص فيهم.

بينما يرى الشيعة أن علي بن أبي طالب، أجَّل الحكم بالقصاص لسببين: الأول هو الانتظار حتى تهدأ الفتنة، لم يكن الإمام قادرًا على تنفيذ القصاص في قتلة عثمان لعدم علمه بأعيانهم، لذلك فضَّل الانتظار لتبيان القتلة، أما الثاني فهو أخذ البيعة من أهالي الأمصار وعزل الولاة وتعيين ولاة جدد، وذلك لتقليل سخط الناس على بعض الولاة، حيث اتهم أهل الشام ومصر الولاة بالعمل لمصالح شخصية على حساب مصالح الناس، وعدم الحفاظ على سنة النبي، فأراد الإمام بذلك إحقاق الحق وتهدئة النفوس وإعادة الأمور إلى نصابها.

ويفسِّر الشيعة خروج طلحة والزبير بأنهما بايعا الإمام طمعًا في منصب، فقد كان طلحة يرجو اليمن والزبير يرغب في العراق، وهو ما لم ينالاه، لذلك خرجا عليه واتخذا من القصاص لمقتل عثمان حجةً لعزله عن الخلافة أو قتله، أما أم المؤمنين عائشة، فهي من حرَّض الناس على قتل عثمان، فهي من قالت: "اقتلوا نعثلًا"، (وهو لقبٌ أطلق على عثمان)، فقد كفر". وهي التي أثارت الحرب وحرَّضت طلحة

والزبير وأخبرتهم بأن الإمام علي، هو من قتله أو سهَّل مقتله، كما أنها كانت تكره علي لعدة أسباب على رأسها: موقف الإمام علي منها يوم حادثة الإفك، حيث أشار على الرسول بطلاقها، كما أنه يروى أنها سجدت لله شكرًا يوم وفاة علي.

قرر الزبير وطلحة ومن معهما بعد ذلك، الخروج إلى البصرة ثم الكوفة والاستعانة بأهلها على قتلة عثمان منهم أو من غيرهم، ثم يدعون أهل الأمصار الأخرى لذلك، ولما وصلوا البصرة أرسل لهم والي البصرة عثمان بن حنيف الأنصاري، يسألهم عن سبب قدومهم، فأخبروه أنهم أتوا مطالبين بدم عثمان، رأى عثمان بن حنيف أن يمنعهم من دخول البصرة، حتى يأتي علي بن أبي طالب، فقام طلحة ثم الزبير يخطبان في أنصار المعسكرين، فأيدهما أصحاب الجمل، ورفضهما أصحاب عثمان بن حنيف ثم قامت أم المؤمنين عائشة تخطب في المعسكرين فثبت معها أصحاب الجمل وانحازت إليها فرقة من أصحاب عثمان بن حنيف.. جاء بعد ذلك حكيم بن جبلة العبدي وهو من قتلة عثمان وسب السيدة عائشة.. وكان لا يمر برجل أو امرأة ينكر عليه أن يسب عائشة إلا قتله فانتشب القتال بين المعسكرين واقتتلوا قتالًا شديدًا، فقتل عددًا ممن شارك في قتل عثمان قدر بسبعين رجلًا، واستطاع الزبير وطلحة ومن معهما أن يسيطروا على البصرة، وتوجه الزبير إلى بيت المال، وأخلى سبيل عثمان بن حنيف.

وصل علي بن أبي طالب إلى ذي قار، وأرسل الرسل بينه وبين طلحة والزبير وعائشة فأرسل القعقاع بن عمرو الذي سعى بين الفريقين بالصلح.. اتفقا بالفعل على الصلح، وعاد القعقاع إلى علي وأخبره بما فعل، ولكن هذا الأمر لم يرضِ جماعةً من قتلة عثمان كالأشتر النخعي وشريح بن أوفى وعبد الله بن سبأ، فأشعلوا القتال بين الطرفين مرةً أخرى.

حاول طلحة إيقاف القتال، فأخذ يهتف في الجمع بإيقافه، حتى أصابه سهم، فلم يزل دمه ينزف، حتى مات، فكان أول قتيل في المعركة.

يروى في عدة روايات تاريخية أن قاتل طلحة، هو مروان بن الحكم مؤجج الفتنة الكبرى منذ بدايتها.. ومن هذه الروايات ما ذكره الذهبي في "سير أعلام النبلاء "عندما قال إن مروان رمى طلحة بسهمٍ فقتله في الحال.

انصرف الزبير عن القتال بعد وفاة طلحة وقرر ترك ساحة القتال.. اتهمه البعض بالجبن، ولكن أول من سل سيفًا في سبيل الله لم يلقِ بالًا بهذه الترهات، ولما رجع الزبير متوجها إلى المدينة لحقه ابن جرموز بوادي السباع فقتله وهو يصلي.

أما عن السيدة عائشة، فقد زارها عليٌ ورحَّبت به وبايعته وجلس عندها ثم ردها إلى المدينة معززةً مكرمة، كما أمر الرسول.

عندما استلم علي بن أبي طالب الحكم، امتنع معاوية بن أبي سفيان وأهل الشام عن مبايعته خليفةً للمسلمين حتى يقتص من قتلة عثمان، فأرسل علي بن أبي طالب جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية يدعوه للمبايعة، وعندما قدم جرير إلى الشام استشار معاوية عمرو بن العاص، فأشار إليه بجمع أهل الشام والخروج نحو العراق للمطالبة بالقصاص من قتلة عثمان.. التقى الجيشان في صفين لتبدأ المعركة، في اليوم الأول أخرج علي بن أبي طالب الأشتر النخعي على رأس مجموعة كبيرة من الجيش، وأخرج معاوية بن أبي سفيان حبيب بن مسلمة على رأس مجموعة كبيرة من جيشه، ودارت الحرب بين الفريقين بشدة منذ الصباح وحتى المغرب وقتل الكثير من الفريقين، وكان قتالًا متكافئًا، في اليوم التالي أخرج علي بن أبي طالب، هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وهو أحد المجاهدين الذين لمعت أسماؤهم كثيرًا

في فتوح فارس والروم، وأخرج معاوية بن أبي سفيان أبا الأعور السلمي.. ودار قتال شديد بين الجيشين، فتساقط القتلى من الفريقين، دون أن تكون الغلبة لأحدهما.

في اليوم الثالث، خرج على جيش العراق عمار بن ياسر، وكان حينذاك شيخًا قد تجاوز التسعين من عمره.. وخرج على جيش الشام عمرو بن العاص، وتقاتل الفريقان من الصباح حتى المغرب، ولم يتم النصر لأحد الفريقين على الآخر، وفي اليوم الرابع خرج على رأس فريق علي بن أبي طالب، محمد بن علي بن أبي طالب المسمى بمحمد بن الحنفية.. وعلى جيش الشام عبيد الله بن عمر بن الخطاب، ودار القتال بين الفريقين من الصباح إلى المساء، وسقط القتلى من الطرفين، ثم تحاجزا ولم تتم الغلبة لأحدٍ على الآخر.

في اليوم الخامس كان على فريق علي بن أبي طالب عبد الله بن عباس وعلى الفريق الآخر الوليد بن عقبة وتقاتل الفريقان طوال اليوم دون أن يحرز أحدهما النصر.. أما في اليوم السادس فقد ولى عليٌ على فريق العراق قيس بن سعد.. وولى معاوية على جيش الشام شرحبيل بن ذي الكلاع، وقد هو في جيش معاوية وقتل والده ذو الكلاع الحميري في هذه المعركة.. ودار قتال شديد بين الفريقين من الصباح إلى المساء، تساقط خلاله القتلى وكثر الجرحى، دون أن تكون الغلبة لأحد الفريقين، وفي اليوم التالي خرج للمرة الثانية كل من الأشتر النخعي على مجموعة من جيش العراق، وحبيب بن مسلمة على جيش الشام.

في مساء هذا اليوم، تبين أن استمرار هذا الأمر من إخراج فرقة تتقاتل مع الفرقة الأخرى دون أن يكون النصر لأحد، سيأتي على المسلمين بالهلاك ولن يحقق المقصود، وهو إنهاء هذه الفتنة، وكان

علي بن أبي طالب يفعل ذلك ليجنب المسلمين خطر التقاء الجيشين الكبيرين، ولئلا تراق دماء كثيرة، فكان يخرج مجموعة من الجيش لعلها أن تهزم المجموعة الأخرى فيعتبروا ويرجعوا عما هم عليه من الخروج على أمير المؤمنين، وكذلك كان معاوية بن أبي سفيان يخرج مجموعة من جيشه فقط، دون الجيش كله ليمنع بذلك إراقة دماء المسلمين.. فقرر علي بن أبي طالب أن يخرج بجيشه كله لقتال جيش الشام، وكذلك قرر معاوية بن أبي سفيان، وبقي الجيشان طوال هذه الليلة يقرأون القرآن ويصلون ويدعون الله أن يمكنهم من رقاب الفريق الآخر جهادًا في سبيل الله، ودوى صوت القرآن في أنحاء المعسكرين.. وبايع جيش الشام معاوية على الموت، فليس عندهم تردد فيما وصلوا إليه باجتهادهم، ويستعدون للقاء الله تعالى على الشهادة في سبيله، ومع أنهم يعلمون أنهم يقاتلون فريقًا فيه كبار الصحابة كعلي بن أبي طالب وسلمان الفارسي وعبد الله بن عباس وغيرهم، إلا أنه كان معهم أيضًا الكثير من الصحابة كمعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وعبد الله بن عمرو بن العاص، وهو من أفقه الصحابة، ولم يكن يرغب على الإطلاق أن يقاتل في صف معاوية ولا في صف علي ولم يشترك في هذه المعركة، إلا لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد أوصاه بألا يخالف أباه طيلة حياته، وقد أمره أبوه عمرو بن العاص أن يشارك في القتال، فاشترك في الحرب غير أنه لم يقاتل ولم يرفع سيفا في وجه أحد من المسلمين.

في اليوم الثامن خرج علي بن أبي طالب بنفسه على رأس جيشه، كما خرج معاوية بن أبي سفيان على رأس جيشه، ودار بين المسلمين من الطرفين قتال عنيف وشرس لم يحدث مثله من قبل، فهؤلاء هم الأسود الشجعان الذين قهروا دولة الروم ودولة الفرس، وثبت الفريقان لبعضهما ولم يفر أحد، ودار القتال من الصباح حتى

العشاء، وتحاجز الفريقان بعد سقوط الكثير من القتلى والجرحى، وفي اليوم التاسع صلى علي بن أبي طالب الصبح، وخرج مباشرةً لساحة القتال مستأنفًا من جديد، كان على ميمنة علي بن أبي طالب عبد الله بن بديل، وعلى ميسرته عبد الله بن عباس، فهجم عبد الله بن بديل على ميسرة معاوية بن أبي سفيان وعليها حبيب بن مسلمة، وأجبرهم عبد الله بن بديل على التوجه إلى القلب، وبدأ جيش علي في إحراز بعض من النصر، ويرى ذلك معاوية، فيوجه جيشه لسد هذه الثغرة، وينجح جيشه بالفعل في سد الثغرة ويردون عبد الله بن بديل عن ميسرتهم، وقتل في هذا اليوم خلق كثير، وانكشف جيش علي بن أبي طالب حتى وصل الشاميون إلى علي الذي قاتل بنفسه قتالًا شديدًا.. وتقول بعض الروايات إنه قَتل وحده في هذه الأيام خمسمائة من الفريق الآخر.

بدأ جيش علي بن أبي طالب في الانكسار بعد الهجمة التي شنها عليها جيش معاوية بن أبي سفيان، فأمر علي بن أبي طالب الأشتر النخعي أن يهب لينقذ الجانب الأيمن من الجيش.. واستطاع بقوة بأسه وكلمته على قومه أن ينقذ الموقف، وأظهر بأسه وقوته وشجاعته في هذا الموقف، ورد الأمر إلى نصابه، واستطاعت ميمنة الجيش السيطرة مرةً أخرى على أماكنها التي كانت قد انسحبت منها.. وقتل في هذا اليوم عبد الله بن بديل، وتكاد الكرة تكون على جيش علي لولا أن ولَّى علي على الميمنة الأشتر النخعي.

عندما رأى معاوية بن أبي سفيان انتصارات جيش علي على جيشه وقد قرب منه القائد مالك الأشتر مع مجموعته، دعا عمرو بن العاص إلى خطة للوقوف أمام هذه الانتصارات المتتالية، فقام عمرو بن العاص، وهو أحد دواهي العرب، بخدعة، حيث دعا جيش معاوية إلى رفع المصاحف على أسنّة الرماح، ومعنى ذلك أنّ القرآن حكم بينهم

ليدعوا جيش علي إلى التوقف عن القتال، ويدعون عليًا إلى حكم القرآن، وبالفعل نفذ عمرو خطته وقبل علي بالتحكيم.

ذهب كل من الحكمين إلى كل فريق على حدة، وأخذا منهما العهود والمواثيق أنهما -أي الحكمان- آمنان على أنفسهما وعلى أهليهما، وأن الأمة كلها عون لهما على ما يريان، وأن على الجميع أن يطيع ما في هذه الصحيفة، فأعطاهم القوم العهود والمواثيق على ذلك، فجلسا سويًا واتفقا على أنهما يجلسان للحكم في رمضان من نفس العام.

كُتبت صحيفة التحكيم على النحو التالي:

"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، قاضى علي على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين، وقاضي معاوية على أهل الشام ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين، إنا ننزل عند حكم الله -عز وجل وكتابه- ولا يجمع بيننا غيره، وإن كتاب الله -عز وجل- بيننا من فاتحته إلى خاتمته، نحيي ما أحيا ونميت ما أمات، فما وجد الحكمان في كتاب الله -عز وجل- عملا به، وما لم يجدا في كتاب الله -عز وجل- فالسُنة العادلة الجامعة غير المفرقة".

شهد هذا الاجتماع عشرة من كل فريق.. فمن أصحاب علي بن أبي طالب شهد كلٌ من: عبد الله بن عباس والأشعث بن قيس الكندي وسعيد بن قيس الهمداني وحجر بن عدي الكندي وعقبة بن زياد الحضرمي.. بينما شهد من أصحاب معاوية بن أبي سفيان كلٌّ من: أبو الأعور السلمي وحبيب بن مسلمة الفهري وبد الرحمن بن خالد المخزومي ويزيد بن الحر العبسي وحمزة بم مالك الهمداني

اجتمع الحكمان في دومة الجندل بأذرح، وكان عمرو بن العاص المفاوض من قبل جيش معاوية بن أبي سفيان وأبو موسى الأشعري

المفاوض من قبل جيش علي بن أبي طالب قد اتفقا في النهاية على خلع معاوية وعلي، وترك الأمر للمسلمين لاختيار خليفة غيرهما.. فخرج الحكمان للناس لإعلان النتيجة التي توصلا إليها، فأعلن أبو موسى الأشعري خلع علي، ومعاوية فقام عمرو بن العاص وقال: "إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبّتِ صاحبي معاوية".. فقال له أبو موسى الأشعري: "غدرت وفجرت"، ودار عراك شديد بينهم، وبعد حادثة التحكيم عاد القتال من جديد واستطاع معاوية أن يحقق بعض الانتصارات، وضم عمرو بن العاص، مصر، بالإضافة إلى الشام، وقتل واليها محمد بن أبي بكر، بينما قاتل علي الخوارج وهزمهم في معركة النهروان، حيث انسحبوا من جيشه، ثم قاموا يقطعون الطرق ويسألون الناس حول آرائهم في الخلفاء الأربعة، فيقتلون من يخالفهم في الرأي بشكل بشع، وهو ما يحدث الآن في بعض بلادنا العربية ويعرف باسم "إعدام حسب الهوية".

اتفق بعض الخوارج على قتل علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص، وندبوا ثلاثة منهم لتنفيذ ذلك الأمر.. نجح عبد الرحمن بن ملجم في قتل الإمام علي وهو في طريقه لصلاة الفجر، بينما لم ينجح زميله في قتل معاوية وأصابه في إليته وهو يركع، أما زميلهما الثالث فقد تربص لعمرو بن العاص الذي تخلَّف عن صلاة الفجر، وأناب عنه خارجة الذي قتل مكانه.

بمقتل الإمام علي، انطوت تلك الصفحة المليئة بالدماء من تاريخنا الإسلامي، واكتمل المشهد بتنازل الحسن عن حقه في الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان، وبتوليه انقضى عهد الخلفاء، وبدأ ملك الدولة الأموية.

الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله

لم تكن النديّة هنا ما بين فريق وآخر.. أو بين رأي وآخر.. وإنما كانت ندية في حب الله والجهاد في سبيله.

رجلان هما في عمر واحد تقريبًا.. آخى بينهما رسول الله في مكة لتستمر رحلتهما الطويلة بعد ذلك في الجهاد في سبيل الله، ويقترن اسمهما معًا.

هو الزبير بن العوام القرشي ابن عمة رسول الله محمد بن عبد الله، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ومن السابقين إلى الإسلام.. يُلقب بـ "حواري رسول الله" لأن النبي قال عنه يومًا: إن لكل نبي حواريا وحواريه هو الزبير، كما أول من سل سيفه في الإسلام، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين اختارهم عمر بن الخطاب ليختاروا الخليفة من بعده، وهو أبو عبد الله بن الزبير الذي بويع بالخلافة، ولكن خلافته لم تمكث طويلًا وسنتحدث عنه لاحقًا.. وهو أيضًا زوج السيدة أسماء بنت أبي بكر، الملقبة بذات النطاقين.

أما طلحة فهو ابن عبيد اللّه التيمي القرشي.. أحد العشرة المبشرين بالجنة ومن السابقين الأولين إلى الإسلام وأحد الستة أصحاب الشورى الذين اختارهم عمر بن الخطاب ليختاروا الخليفة من بعده، قال عنه رسول الله إنه شهيد يمشي على الأرض، فكانت بشرى له بالشهادة، كما أنه كان شديد الثراء والتصدق بأمواله حتى لقَّبه رسول الله بطلحة الفياض.

أسلم الزبير وهو ابن ست عشرة سنة، وقيل ابن اثنتي عشرة سنة، وقيل ابن ثمان سنوات، وكان إسلامه بعد إسلام أبي بكر الصديق، فقيل إنه كان رابع أو خامس من أسلم، هاجر إلى الحبشة في الهجرة

الأولى ولم يطِل الإقامة بها، وتزوج أسماء بنت أبي بكر وهاجرا إلى يثرب - التي سميت فيما بعد بالمدينة المنورة، فولدت له عبد الله بن الزبير، فكان أول مولود للمسلمين في المدينة، وتم الاحتفال بولادة عبد الله؛ لأن اليهود كانوا قد أشاعوا أنهم سحروا للمسلمين حتى لا يولد لهم ولد ولا يتكاثروا بعد دخولهم يثرب.. فكانت ولادة عبد الله دليلًا على كذبهم.

كان طلحة بن عبيد الله أيضًا من السابقين الأولين، وأحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام، حيث كان من الذين أسلموا على يد أبي بكر الصديق، هاجر طلحة إلى المدينة المنورة بعد هجرة النبي محمد، حيث كان في تجارة في الشام.. وفي طريق عودته إلى مكة، لقي النبي وأبا بكر، وهما في طريقهما إلى يثرب، فكساهما من ثياب الشام ثم عاد إلى مكة وأخذ أهل بيت الصديق وخرجوا مهاجرين إلى المدينة.

شهد الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله جميع الغزوات والمشاهد مع رسول الله.. وكانا من الفرسان والقادة.. يروى أن الزبير قد أصيب جسده بكثير من الطعن والرمي؛ فكان به أكثر من ثلاثين طعنة وأثرا للجروح.. أم طلحة فقد دافع عن رسولنا الكريم في غزوة أحد حتى شلت يده ويقال إنها ظلت كذلك حتى وفاته.

كان الزبير وطلحة من جملة أنصار عثمان بن عفان في الفتنة الإسلامية الكبرى، فلما قتل عثمان، ندم الزبير وأصحابه على عدم مساعدته، وعزموا على الأخذ بثأر عثمان، وبعدما بويع علي بن أبي طالب بالخلافة، طلب منه الزبير وطلحة تعجيل إقامة القصاص، واقترحا أن يخرجا للبصرة والكوفة، فأمرهما علي بالتريث والانتظار حتى تهدأ الأمور قليلًا، وبعد مرور أربعة أشهر من مقتل عثمان، خرج الزبير وطلحة معتمرين إلى مكة، والتقوا بعائشة بنت أبي بكر، ودعا الزبير الناس إلى الأخذ بثأر عثمان والقصاص له من قاتليه.

قرر الزبير وطلحة ومن معهما بعد ذلك الخروج إلى البصرة ثم الكوفة والاستعانة بأهلها على قتلة عثمان منهم أو من غيرهم، ثم يدعون أهل الأمصار الأخرى لذلك.. ولما وصلوا البصرة أرسل لهم والي البصرة عثمان بن حنيف الأنصاري يسألهم عن سبب قدومهم فأخبروه أنهم أتوا مطالبين بدم عثمان.. رأى عثمان بن حنيف أن يمنعهم من دخول البصرة حتى يأتي على بن أبي طالب.. فقام طلحة ثم الزبير يخطبان في أنصار المعسكرين فأيدهما أصحاب الجمل، ورفضهما أصحاب عثمان بن حنيف، ثم قامت أم المؤمنين عائشة تخطب في المعسكرين، فثبت معها أصحاب الجمل، وانحازت إليها فرقةٌ من أصحاب عثمان بن حنيف.. جاء بعد ذلك حكيم بن جبلة العبدي، وهو من قتلة عثمان وسب السيدة عائشة، وكان لا يمر برجل أو امرأة ينكر عليه أن يسب عائشة، إلا قتله، فانتشب القتال بين المعسكرين، واقتتلوا قتالًا شديدًا، فقتل عدد ممن شارك في قتل عثمان قدِّر بسبعين رجلًا، واستطاع الزبير وطلحة ومن معهما أن يسيطروا على البصرة، وتوجه الزبير إلى بيت المال، وأخلى سبيل عثمان بن حنيف.

وصل علي بن أبي طالب إلى ذي قار، وأرسل الرسل بينه وبين طلحة والزبير وعائشة، فأرسل القعقاع بن عمرو الذي سعى بين الفريقين بالصلح، اتفقا بالفعل على الصلح، وعاد القعقاع إلى علي وأخبره بما فعل، ولكن هذا الأمر لم يرضِ جماعةً من قتلة عثمان كالأشتر النخعي وشريح بن أوفى وعبد الله بن سبأ، فأشعلوا القتال بين الطرفين مرةً أخرى.

حاول طلحة إيقاف القتال، فأخذ يهتف في الجمع بإيقافه حتى أصابه سهمٌ في ركبته فقطع من رجله عرق النَسا، فلم يزل دمه ينزف،

حتى مات، فكان طلحة هو أول قتيل في المعركة.. وقيل: إن السهم أصابه في حلقه فمات من فوره.

يروى في عدة روايات تاريخية أن قاتل طلحة، هو مروان بن الحكم مؤجج الفتنة الكبرى منذ بدايتها، ومن هذه الروايات ما ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء، عندما قال: إن مروان رمى طلحة بسهم فقتله في الحال.

انصرف الزبير عن القتال بعد وفاة أخيه وصديق عمره وقرر ترك ساحة القتال، اتهمه البعض بالجبن، ولكن أول من سلَّ سيفًا في سبيل الله لم يلق بالًا بهذه التُرهات، ولما رجع الزبير متوجهًا إلى المدينة، لحقه ابن جرموز بوادي السباع، فقتله وهو يصلي.

يعد الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله، أحد أكثر الشخصيات تبجيلًا عند أهل السنة والجماعة، حيث يرون أنهما من السابقين الأولين إلى الإسلام، وأنهما من العشرة المبشرين بالجنة، وأنهما أيضا كانا من الستة أصحاب الشورى، كما أنهما كانا من كبار المجاهدين في سبيل الله، وشهدا جميع غزوات الرسول.

بينما يرى الشيعة أن الزبير وطلحة ماتا كافرين لقتالهما علي بن أبي طالب، وتروي كتب الشيعة قولًا منسوبًا للإمام علي يقول فيه إن أئمة الكفر في الإسلام خمسة: وهم طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري، كما أن انصراف الزبير عن القتال في معركة الجمل ومقتل طلحة فيها، لا يشفع لهما.

ارتبطا ببعضهما منذ إسلامهما وحتى استشهادهما، فكانا خير الأنداد وأوفى الأصدقاء.

الحسين بن علي، ويزيد بن معاوية

"الحسين مني، وأنا من حسين".

تلخِّص تلك الجملة والتي قالها نبي الله وحبيبه سيدنا محمد، صلوات ربي وسلامه عليه، مكانة الحسين حفيده لديه.

الحسين الذي وقف أمام يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، والذي أراد البيعة لنفسه، فكان استشهاده بعد أن تخلى عنه أنصاره.

وُلد الحسين بن علي في المدينة المنورة بعد مولد أخيه الحسن، أراد أبوه أن يسميه حربًا، فسماه جده سيدنا محمد بن عبد الله الحسين، وأذَّن له في أذنه، ودعا له وذبح عنه يوم سابعه شاة وتصدق بوزن شعره فضة.. نشأ الحسين في بيت النبوة بالمدينة ست سنوات وأشهرًا، حيث كان فيها موضع الحب والحنان من جده النبي، فكان كثيرًا ما يداعبه ويضمه ويقبله، وكان يشبه جده النبي، خلقًا وطبعًا، فهو مثال للتدين في التقى والورع، وكان كثير الصوم والصلاة يطلق يده بالكرم والصدقة، ويجالس المساكين كما يروي بأنه قد حج قرابة الخمس والعشرين مرة.

بعد مقتل الإمام علي والده على يد عبد الرحمن بن ملجم، كان الحسين عونًا لأخيه الحسن في بيعته، وبايع الناس الحسن خليفةً للمسلمين عقب يومين من وفاة والده، وأرسل الحسن إلى معاوية بن أبي سفيان للمبايعة والدخول في الجماعة، لكنه رفض ذلك، فلم يجد الحسن أمامه من سبيلٍ غير القتال، أخذ يحث أنصاره على التحشد، وبلغ معاوية خبره، فقصده بجيشه، وتقارب الجيشان في موضع يقال له مسكن بناحية من الأنبار، هال الحسن أن يقتتل المسلمون، ولم يستشعر الثقة فيمن معه، فكتب إلى معاوية يشترط شروطًا للصلح،

أبرزها أن ليس لمعاوية أن يعهد لأحد من بعده، وأن يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين ورضي معاوية.. فخلع الحسن نفسه من الخلافة وسلم الأمر لمعاوية في بيت المقدس.. لم ير الحسين رأي أخيه وظل معترضًا على النزول عن الخلافة، وإن سكت درءًا لفتنةٍ قد تنشب بين المسلمين، وأطلق على ذلك العام عام الجماعة.

بعد وفاة الحسن، استمر في الحفاظ على عهد أخيه مع معاوية ولم يخرج إلا بعد استلام يزيد الحكم.. كان من شروط الحسن في صلحه مع معاوية أن يتولى الحسن الحكم من بعد معاوية، فإن حدث حادث في الحسن، فالحسين، فلما أراد معاوية، أخذ البيعة لابنه يزيد، قام بدس السم للحسن، بحسب روايات الشيعة والسنة على حدٍّ سواء، أخذ معاوية يمهد لبيعة ابنه يزيد، ولكن زياد ابن أبيه، واليه على العراق نصحه بالتمهل وعدم الاستعجال في هذا الأمر، وقبل معاوية نصيحة زياد، ولم يعلن عن بيعة يزيد، إلا بعد وفاة الحسن، وبدأ جهوده في سبيل توطئة الأمر لابنه في المدينة المنورة؛ لأنها كانت العاصمة الأولى التي كان يبايع فيها الخلفاء وكان رجالات الإسلام فيها وعليهم المعول في إقرار البيعة وقبولها، وحين عرض معاوية ما عزم عليه على أهل المدينة عن طريق عامله عليها مروان بن الحكم، وافقه الكثيرون على ضرورة تدبير أمر الخلافة والمسلمين، ولكن حين عرض عليهم اسم يزيد، اختلفوا فيه وأعلن الكثيرون أنهم لا يرضون به، وكان أكبر المعارضين: الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن عمر، غير أن دهاء معاوية فوت فرصة المصادمة؛ لأنه لم يجبرهم على البيعة.. ما إن توفي معاوية وبويع يزيد بالخلافة، حتى كتب يزيد إلى عامله على المدينة الوليد بن عقبة أن يأخذ الحسين وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذًا شديدًا ليست فيه رخصة حتى يبايعا، تدبر الحسين شأنه مع والي المدينة في خبر طويل،

ورحل عن المدينة من دون أن يبايع يزيد بالخلافة، واتجه إلى مكة المكرمة سرًا في جماعة من أصحابه وأهله.

وصلت أنباء رفض الحسين مبايعة يزيد واعتصامه في مكة إلى الكوفة، التي كانت أحد معاقل الفتنة، وبرزت تيارات في الكوفة تؤمن أن الفرصة قد حانت لأن يتولى الخلافة الحسين بن على حفيد رسول الله، واتفقوا على أن يكتبوا للإمام الحسين يحثونه على القدوم إليهم ليسلموا له الأمر ويبايعوه بالخلافة، بعد تلقيه العديد من الرسائل من أهل الكوفة، قرر الحسين أن يستطلع الأمر، فقام بإرسال ابن عمه مسلم بن عقيل، ليكشف له حقيقة الأمر، عندما وصل مسلم إلى الكوفة شعر بجوٍّ من التأييد لفكرة خلافة الحسين ومعارضة شديدة لخلافة يزيد بن معاوية، وحسب بعض المصادر الشيعية، فإن ما يقترب من العشرين ألف شخص قد بايعوا الحسين ليكون الخليفة، وقام مسلم بن عقيل بإرسال رسالة إلى الحسين يعجل فيها قدومه، قام أصحاب وأقارب وأتباع الحسين بإسداء النصيحة له بعدم الذهاب إلى ولاية الكوفة ومنهم عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وأبو سعيد الخدري، وعمرة بنت عبد الرحمن، ولكن الحسين كان قد صمم على الذهاب.

لما وصلت هذه الأخبار إلى الخليفة الأموي الجديد الذي قام على الفور بعزل والي الكوفة النعمان بن بشير بتهمة تساهله مع الاضطرابات التي تهدد الدولة الأموية، وقام الخليفة يزيد بتنصيب والٍ آخر كان أكثر قسوةً اسمه عبيد الله بن زياد، قام بتهديد رؤساء العشائر والقبائل في منطقة الكوفة بإعطائهم خيارين: إما سحب دعمهم للحسين، أو انتظار قدوم جيش الدولة الأموية ليبيدهم عن بَكرة أبيهم، كان تهديد الوالي الجديد فعَّالًا فبدأ الناس يتفرقون عن مبعوث الحسين مسلم بن عقيل شيئًا فشيئًا، لينتهي الأمر بقتل بن

عقيل.. اختلفت المصادر في طريقة قتله، فبعضها تحدث عن إلقائه من أعلى قصر الإمارة، وبعضها الآخر عن سحبه في الأسواق، وأخرى عن ضرب عنقه وقيل إنه صلب، وبقطع النظر عن هذه الروايات، فإن هناك إجماعًا على مقتله وعدم معرفة الحسين بمقتله عند خروجه من مكة إلى الكوفة، بناءً على الرسالة القديمة التي استلمها قبل تغيير موازين القوة في الكوفة، وقد علم الحسين بمقتل مسلم بن عقيل عندما كان في زرود في الطريق إلى العراق.

استمر الحسين وقواته بالمسير، إلى أن اعترضهم الجيش الأموي في صحراء كانت تسمى الطف، واتجه نحو الحسين جيش قوامه ثلاثين ألف مقاتل، يقوده عمر بن سعد بن أبي وقاص، ووصل هذا الجيش الأموي بالقرب من خيام الحسين وأتباعه، وفي اليوم التالي عبَّأ عمر بن سعد رجاله وفرسانه، فوضع على ميمنة الجيش عمر بن الحجاج، وعلى ميسرته شمر بن ذي الجوشن، وعلى الخيل عروة بن قيس، وكانت قوات الحسين تتألف من قرابة الاثنين والثلاثين ألف مقاتل، وأعطى رايته أخاه العباس بن علي.

بعد أن رأى الحسين تخاذل أهل الكوفة وتخليهم عنه، كما تخلوا من قبل عن مناصرة مسلم، وبلغ تخاذلهم أنهم أنكروا الكتب التي بعثوا بها إلى الحسين حين ذكَّرهم بها، فعرض على عمر بن سعد ثلاثة حلول: الأول هو أن يرجع إلى المكان الذي أقبل منه، والثاني أن يذهب إلى ثغر من ثغور الإسلام للجهاد فيه، والثالث أن يأتي يزيد بن معاوية في دمشق، فيطلب منه الحلين الأولين، إلا أن المفاوضات لم يكتب لها النجاح.

مع رفض الحسين للتسليم، بدأ رماة الجيش الأموي يمطرون الحسين وأصحابه الذين لا يزيدون عن ثلاثة وسبعين رجلًا بوابلٍ من

السهام، كان عمر بن سعد بن أبي وقاص هو أول من رمى، أصيب الكثير من أصحاب الحسين، ثم اشتد القتال ودارت رحى الحرب، وغطى الغبار أرجاء الميدان، واستمر القتال ساعةً من النهار، ولما انجلى غبار المعركة كان هناك قرابة الخمسين صريعًا من أصحاب الحسين، استمرت المعركة تدور في ميدان كربلاء، وأصحاب الحسين يتساقطون ويستشهدون الواحد تلو الآخر، واستمر الهجوم والزحف نحو من بقي مع الحسين، وأحاطوا بهم من جهات متعددة، حرق جيش يزيد خيام أصحاب الحسين، فراح من بقي من أصحاب الحسين وأهل بيته ينازلون جيش عمر بن سعد، ويتساقطون الواحد تلو الآخر.

بدأت اللحظات الأخيرة من المعركة عندما ركب الحسين بن علي جواده يتقدمه أخوه العباس بن علي بن أبي طالب حامل اللواء، ولكن العباس وقع شهيدًا ولم يبق في الميدان سوى الحسين الذي أصيب بسهم مثلث ذو ثلاث شعب، فاستقر السهم في قلبه وراحت ضربات الرماح والسيوف تمطر جسد الحسين، حتى وقع شهيدًا على الأرض.

حسب الرواية فإن شمر بن ذي جوشن، قام بفصل رأس الحسين عن جسده باثنتي عشرة ضربة بالسيف من القفى، وكان ذلك في يوم الجمعة من عاشوراء في المحرم سنة إحدى وستين من الهجرة، وكان حفيد رسول الله يبلغ الستة والخمسين من الأعوام، ولم ينج من القتل إلا علي بن الحسين السجاد، وذلك بسبب اشتداد مرضه وعدم قدرته على القتال فحفظ نسل أبيه من بعده.

كانت نتيجة المعركة واستشهاد الحسين على هذا النحو مأساةً مروعةً أدمت قلوب المسلمين وغير المسلمين، وهزت مشاعرهم في كل أنحاء العالم، وحركت عواطفهم نحو آل البيت، وكانت سببًا في قيام ثورات عديدة ضد الأمويين، تصدى لها يزيد ومن بعده بمنتهى القوة والعنف.

حدث خلاف كبير لدى أهل السنة والجماعة حول المكان الذي دفن فيه رأس الحسين، فهناك من قال إن الرأس دفن مع الجسد في كربلاء، وهو ما عليه جمهور الشيعة، حيث الاعتقاد بأن الرأس عاد مع السيدة زينب إلى كربلاء بعد أربعين يومًا من مقتله، وهو اليوم الذي يجدد فيه الشيعة حزنهم، وهناك من يرى أن موضع الرأس بالشام، وهو على حسب بعض الروايات التي تذكر أن الأمويين ظلوا محتفظين بالرأس يتفاخرون به أمام الزائرين، حتى أتى عمر بن عبد العزيز وقرر دفن الرأس وإكرامه، كما ذكر "الذهبي" في "الحوادث" من غير وجه، أن الرأس قُدم به على يزيد، وهناك من يجزم بأن موضع الرأس بعسقلان، وهذا الرأي امتدادٌ للرأي الثاني، حيث لو صح الثاني من الممكن أن يصح الثالث والرابع، وتروي بعض الروايات ومن أهمها المقريزي، أنه بعد دخول الصليبيين إلى دمشق واشتداد الحملات الصليبية، قرر الفاطميون أن يبعدوا رأس الحسين ويدفنوها في مأمنٍ من الصليبيين، وخصوصًا بعد تهديد بعض القادة الصليبيين بنبش القبر، فحملوها إلى عسقلان ودفنت هناك، وهناك أيضًا من يقول إن موضع الرأس بالبقيع بالمدينة، وهو الرأي الثابت عند أهل السنة لرأي شيخ الإسلام ابن تيمية، حين سئل عن موضع رأس الحسين، فأكد أن جميع المشاهد بالقاهرة وعسقلان والشام مكذوبة، مستشهدًا بروايات بعض رواة الحديث والمؤرخين مثل القرطبي والمناوي وبناءً على هذا، فهناك رواية بأن موضع الرأس بالقاهرة، حيث يروي المقريزي أن الفاطميين قرروا حمل الرأس من عسقلان إلى القاهرة، وبنوا له مشهدًا كبيرًا، وهو المشهد القائم الآن في حي الحسين في القاهرة، وهناك رواية محلية بين المصريين ليس لها مصدر معتمد سوى حكايات الناس وكتب المتصوفة، أن الرأس جاء مع زوجة الحسين عنه

شاه زنان بنت يزدجرد الملقبة في مصر بأم الغلام، التي فرت من كربلاء على فرس.. وأخيرًا فهناك رأي يقول إن موضع الرأس مجهول.

بعد استشهاد الإمام الحسين هدأت كثيرًا حركة المعارضة على حكم يزيد، وإن استمر عبد الله بن الزبير في معارضته حتى وفاة يزيد، لن نتحدث كثيرًا عن يزيد أو ما أطلق عليه بشرب الخمر وادعائه بعدم نزول وحي من الأساس، بل سنكتفي بما أجازه معظم علماء السنة بـ "ألعن يزيد ولا تزيد".

رحم الله الإمام الحسين، وجازى من أخرجوه ثم تخلوا عنه.

عبد الله بن الزبير، والحجاج بن يوسف الثقفي

"أما آن للفارس أن يترجل".

الفارس هو عبد الله بن الزبير.. ونده ليس عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي الذي قتل في عهده، بل هو مدمر دولته، والشخصية الأكثر إثارة للجدل في تاريخنا الإسلامي.. الحجاج بن يوسف الثقفي.

في بيتٍ من أكرم بيوت العرب وأنبلها نسبًا وشرفًا، ولد عبد الله بن الزبير في العام الثاني للهجرة، فأبوه الزبير بن العوام من كبار الصحابة وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأول من سل سيفًا في سبيل الله وحواري رسول الله، صلوات ربي وسلامه عليه، وأمه هي أسماء بنت أبي بكر الصديق وذات النطاقين، وجده لأمه هو أبا بكر الصديق صاحب رسول الله وأول من أسلم من الرجال وأول خليفة للمسلمين، يعد أول مولود للمسلمين في المدينة بعد الهجرة، وكان فرح المسلمين بولادته كبيرًا، وسعادتهم به طاغية، لأن اليهود كانوا يقولون إنهم سحروا للمسلمين حتى لا يولد لهم ولد بالمدينة ولا يتكاثروا، فكانت ولادة عبد الله دليلًا على كذب اليهود.

نشأ عبد الله بن الزبير نشأةً طيبة، وتنسَّم منذ صغره عبق النبوة، وكانت خالته السيدة عائشة تعتني به وتتعهده، حتى كنيت باسمه فكان يقال لها "أم عبد الله"، لأنها لم تنجب ولدًا، وكان في عبد الله منذ صغره ميلٌ للزعامة ورغبةٌ في القيادة، وتنبأ له الفاروق عمر بن الخطاب بمستقبل باهر، لما رأى من رباطة جأشه وثبات قلبه واعتداده بنفسه، فقد مرَّ عمر بعبد الله وهو يلعب مع رفاقه من الصبيان فأسرعوا يلوذون بالفرار هيبةً لعمر وإجلالًا له، في حين ثبت عبد الله بن الزبير ولزم مكانه، فقال له عمر: "مالك لم تفر معهم؟"..

فقال عبد الله: "لم أجرم فأخافك، ولم يكن الطريق ضيقًا فأوسع لك".

لم يكن غريبًا على من نشأ هذه النشأة الصالحة أن يشب محبًا للجهاد، فشهد وهو في الرابعة عشرة من عمره معركة اليرموك الشهيرة، واشترك مع أبيه في فتح مصر، وأبلى بلاءً حسنًا وخاض عمليات فتح شمال إفريقيا تحت قيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، في عهد عثمان بن عفان، وأبدى من المهارة والقدرة العسكرية ما كفل للجيش النصر.

عندما حوصر الخليفة عثمان بن عفان في بيته، كان عبد الله بن الزبير في مقدمة المدافعين عنه ضد الخوارج، وشهد موقعة الجمل مع أبيه الزبير وطلحة بن عبيد الله والسيدة عائشة، ولما بويع معاوية بن أبي سفيان بالخلافة أحسن إلى عبد الله بن الزبير واستماله إليه وأكرمه، وكان هذا صنيعه مع كبار الصحابة وأبنائهم، وترتب على ذلك أن هدأت الأحوال واستقرت الأوضاع بعد الفتنة العارمة والرياح الهوجاء التي كادت تعصف بالدولة وتهدد أمنها ووحدتها، قابل ابن الزبير هذا الإحسان والإكرام من معاوية بحسن الطاعة والثناء عليه، واشترك في الغزوات والفتوحات التي قامت في عهده، فغزا إفريقية تحت قيادة معاوية بن حديج، وشارك في فتح القسطنطينية مع الجيش الذي قاده يزيد بن معاوية.

ظلَّت العلاقة بين معاوية وابن الزبير على أحسن ما تكون، حتى بدأ معاوية في أخذ البيعة بالخلافة لابنه يزيد من بعده، فقاد ابن الزبير حركة المعارضة لهذه الخطوة التي تحول الخلافة من الشورى والانتخاب إلى الملك والتوريث، ولم ينجح معاوية في إقناع هؤلاء المعارضين من أبناء الصحابة في مبايعة يزيد، فلجأ إلى الشدة والعنف في سبيل تحقيق ذلك، إلا أنه لم ينجح مع الجميع.

عندما تولى يزيد بن معاوية الخلافة، حرص على أخذ البيعة من الأمصار الإسلامية، فلبَّت نداءه وبايعته دون تردد، في حين استعصت عليه بلاد الحجاز، حيث يعيش أبناء الصحابة الذين امتنعوا عن مبايعة يزيد، وكان في مقدمة الممتنعين الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير، غير أن يزيد بن معاوية ألح في ضرورة أخذ البيعة منهما، ولو جاء الأمر قسرًا وقهرًا لا اختيارًا وطواعية، ولم يجد ابن الزبير مفرًا من مغادرة المدينة والتوجه إلى مكة والاحتماء ببيتها العتيق، وسمى نفسه "العائذ بالبيت"، وفشلت محاولات يزيد في إجباره على البيعة.

بعد استشهاد الحسين بن علي في معركة كربلاء، التف الناس حول ابن الزبير وزاد أنصاره سخطًا على يزيد بن معاوية، حاول يزيد أن يضع حدًا لامتناع ابن الزبير عن مبايعته، فأرسل إليه جيشًا بقيادة مسلم بن عقبة، غير أنه توفي وهو في الطريق إلى مكة، فتولى قيادة الجيش الحصين ابن نمير، وبلغ مكة وحاصر ابن الزبير أربعة وستين يومًا دارت خلالها مناوشات لم تحسم الأمر، وفي خلال هذا الصراع جاءت الأنباء بوفاة يزيد بن معاوية، فسادت الفوضى والاضطراب في صفوف جيش يزيد.

توقف القتال بين الفريقين، وعرض الحصين بن نمير على ابن الزبير أن يبايعه، لكن ابن الزبير رفض هذا العرض الذي لو قبله لربما تم له الأمر دون معارضة، لأن بني أمية اضطرب أمرهم بعد موت يزيد من معاوية ورفض ابنه معاوية بن يزيد تولي الأمر، ثم لم يلبث أن توفي هو الآخر بعد أبيه مباشرة، ويقال: إن السم قد دُس له من أقاربه، حتى يظل لهم حق بالمطالبة بالخلافة، وتبقى في بيت بني أمية.

أعلن عبد الله ابن الزبير نفسه خليفةً للمسلمين عقب وفاة يزيد بن معاوية وبويع بالخلافة، ودخلت في طاعته ومبايعته معظم الولايات

مثل الكوفة والبصرة ومصر وخراسان والشام معقل الأمويين، ولم يبق سوى الأردن على ولائه لبني أمية بزعامة حسان بن بحدل الكلبي.. ولم يلق ابن الزبير تحديًا في بادئ الأمر، فهو صحابي جليل تربى في بيت النبوة واشتهر بالتقوى والصلاح والزهد والورع والفصاحة والبيان والعلم والفضل، وحين التفت المسلمون حولهم، لم يجدوا خيرًا منه لتولي هذا المنصب الرفيع.

غير أن هذه الملكات لم تكن وحدها كفيلةً بحسم الأمر له على الرغم من مبايعة معظم العالم الإسلامي له، فقد كانت تنقصه أشياء لا تعيبه ولا تعيب خلقه، لكنها كانت من ضرورات عصره كاستمالة الناس وحشد الأتباع والأعوان ببذل الأموال والإغداق عليهم جذبًا لهم، وإشاعةً للفرقة وشق الصفوف بين الخصوم، وهذا الأمر ما نجح فيه خصومه من بني أمية وعجز هو عن مجاراتهم فيه.

بدأ ابن الزبير خلافته في مكة وهي على قداستها وعظمتها لم تكن تصلح عاصمةً لدولةٍ مترامية الأطراف، وترك دمشق التي كانت تتوسط العالم الإسلامي وتمتلئ بالرجال والمال.. ثم أقدم على خطوة كان فيها حتفه ونهاية خلافته، حين أخرج معظم رجال بني أمية من المدينة وكان فيهم مروان بن الحكم وابنه عبد الملك، وهو ما أعطاهم الفرصة من التوجه إلى الشام وجمع شمل الأنصار والأعوان الذين حضروا من كل مكان، عقدوا مؤتمرًا في الجابية وبايعوا مروان بن الحكم بالخلافة، لو كان ابن الزبير يعلم الغيب لأبقى بني أمية في المدينة تحت نظره ومراقبته، وكان في مقدوره أن يفعل ذلك ولا يعطيهم الخطوة الأولى التي كان لها شأن في انطلاق بني أمية لإعادة الخلافة لهم والقضاء عليه.

استهل مروان بن الحكم أمره باستعادة الشام التي كان معظم أقاليمها قد بايع ابن الزبير، بعد أن نجح في هزيمة أنصار ابن الزبير وقتل قائدهم الضحاك بن قيس في معركة مرج راهط، ثم أعقب ذلك

بالاستيلاء على مصر وولى عليها ابنه عبد العزيز، وزوده بالنصائح المهمة، وقفل راجعًا إلى الشام ليواصل جهوده في الزحف نحو العراق.

توفي مروان بن الحكم وخلفه ابنه عبد الملك بن مروان، وكانت الشام ومصر تحت سلطانه، في حين بقيت الحجاز والعراق تحت سيطرة ابن الزبير، وفي خلال ذلك ظهرت دعوة المختار ابن أبي عبيد الثقفي التي اجتذبت الشيعة وانضموا تحت لوائه وازداد نفوذه بالعراق بعد أن هزم جيشًا أرسله عبد الملك بن مروان بقيادة عبيد الله بن زياد في معركة الخازر، وبعد تلك الهزيمة توقف عبد الملك بن مروان مؤقتا عن فكرة استعادة العراق لعلمه أن عبد الله بن الزبير لن يترك المختار الثقفي يستبد بالعراق، وأن الصدام بينهما آت لا مفر منه، فآثر الانتظار حتى يفرغ أحد الطرفين من الآخر، فيقابله وهو منهوك القوى، فيضمن لنفسه الظفر والفوز، وهذا ما كان فاصطدم مصعب بن الزبير بالمختار الثقفي، وقضى عليه مستعيدًا لنفوذ أخيه في العراق.

عزم عبد الملك بن مروان على استعادة العراق التابعة لدولة ابن الزبير، فخرج إليها بنفسه بعد أن اطمأن إلى تثبيت أركان دولته وتوطيد حكمه، وأعد جيشًا عظيمًا لهذا اللقاء الفاصل، علم مصعب بن الزبير، والي العراق، بهذه التحركات، فاستعد لمواجهة عبد الملك بن مروان، وقبل اللقاء الفاصل أخذ عبد الملك يكاتب زعماء أهل العراق ويعدهم ويمنيهم بالمال فاستجابوا له وانضموا إليه وتخلوا عن مصعب في أدق المواقف وأصعبها، فانهزم في المعركة التي دارت بين الفريقين عند دير الجاثليق، وقتل في هذا اللقاء بعد أن بذل ما يمكنه من الشجاعة والبسالة، وبعد انتهاء المعركة دخل عبد الملك الكوفة وبايعه أهلها، ودخلت العراق تحت سيطرته، وعين أخاه بشر واليًا عليها.

كان ضياع العراق من يد عبد الله بن الزبير، أكبر كارثة حلَّت به في الوقت الذي قوي فيه خصمه بانضمام العراق تحت ملكه وسلطانه الذي أصبح يضم معظم أقطار العالم الإسلامي، وانحصرت دولة ابن الزبير في الحجاز.

لم يضيع عبد الملك بن مروان الوقت في الانتظار، بعد انتصاره على مصعب بن الزبير، فأعد حملةً عسكريةً في عشرين ألف جندي ووجهها إلى الحجاز للقضاء على ابن الزبير المعتصم بمكة الذي لم يكن بمقدوره الصمود، بعد أن فقد معظم دولته ولم يبق له سوى الحجاز، وسلم قيادة ذلك الجيش لرجلنا الآخر.. الحجاج بن يوسف الثقفي.

والحجاج ولد في منازل ثقيف بمدينة الطائف في العام الحادي والأربعين من الهجرة.. وكان اسمه كليب ثم أبدله بالحجاج، نشأ في الطائف وتعلَّم القرآن والحديث والفصاحة، ثم عمل في مطلع شبابه معلم صبيان مع أبيه يعلم الفتية القرآن والحديث ويفقههم في الدين، لكنه لم يكن راضيًا بعمله هذا على الرغم من تأثيره الكبير عليه، فقد اشتهر بتعظيمه وكان معروفًا بحسن العبادة، وكان غيورًا على القرآن، وكان الحجاج بعيدًا كل البعد عن الملذات زاهدًا عن المال، وكان صاحب مواعظ بليغة معروف ببعده عن صفات النفاق الثلاثة وكل هذه الصفات لا ينفي أنه كان مغاليًا في التكفير، أي أنه كان يفعل ما يفعله تقربًا لله، حتى ما فعله عندما انضم لجيش عبد الملك بن مروان وتوجه لقتال ابن الزبير.

توجَّه الحجاج إلى الحجاز ونزل الطائف، وأخذ يرسل بعض جنوده لقتال ابن الزبير، فدارت بينهما عدة اشتباكات، كانت نتيجتها في صالح الحجاج، ثم تقدم إلى محاصرة عبد الله بن الزبير ونصب المنجنيق على جبل أبي قيس، وبدأ في تصويبهم ناحية مكة وبيتها العتيق، فلما أهلَّ ذو الحجة، لم يستطع ابن الزبير أن يحج، وحج بالناس عبد الله بن

عمر، وطلب من الحجاج أن يكف عن ضرب الكعبة بالمنجنيق؛ لأن الناس قد امتنعوا عن الطواف، فامتثل الحجاج، وبعد الفراغ من طواف الفريضة، عاود الحجاج الضرب حتى تهدَّمت الكعبة، وأعاد ابن الزبير بناءها من جديد.

تشدد في حصار ابن الزبير، حتى تحرج موقفه وانصرف عنه رجاله ومنهم ابناه حمزة وخبيب، اللذان ذهبا إلى الحجاج وأخذا منه الأمان لنفسيهما، فلما رأى عبد الله بن الزبير ذلك، دخل على أمه أسماء بنت أبي بكر -وكانت قد بلغت من الكبر عتيًا- حزينًا يشكو إليها ما هو فيه من هم وحزن، فشدت من أزره وأوصته بالصبر والثبات وعدم التراجع ما دام على الحق، فخرج من عندها وذهب إلى القتال ليستشهد في المعركة، وبوفاته انتهت دولته التي استمرت نحو تسع سنوات، قطع رأس ابن الزبير، وأرسل إلى عبد الملك بن مروان.. وصلب الحجاج بدنه منكسًا عند الحجون بمكة، واستباحها مع المدينة لثلاث أيام، وظل جسد ابن الزبير مصلوبًا حتى مرَّ به عبد الله بن عمر فقال: "رحمة الله عليك يا أبا خبيب، أما والله لقد كنت صوامًا قوامًا".. ثم بعث للحجاج قائلًا: "أما آن للفارس أن يترجل؟".. فأنزل ودفن هناك بعد أن صلى عليه أخوه عروة وأمه أسماء بنت أبي بكر، والتي توفيت بعده بأشهرَ قليلة.

تولى الحجاج بعد ذلك ولاية مكة، وفعل في أهلها الأفعال الشنيعة التي يفضَّل عدم ذكرها في موضعنا هذا، وبوفاة ابن الزبير، انتهت آخر المعارضة التي لقيها بنو أمية لتثبيت أقدامهم في حكم بلاد المسلمين.

رحم الله ابن الزبير الخليفة الذي يخشى البعض، أو يتناسون وضعه بين الخلفاء.

أبو جعفر المنصور وأبو حنيفة النعمان

عندما يخالط رجالُ الدين رجالَ السياسة، تقع دومًا المحن والمصائب.

دائمًا ما يلجأ رجال السياسة لرجال الدين حتى يضفوا قدسيةً لحكمهم وغطاءً شرعيًّا لقراراتهم، والتي تكون غالبا ضد مصلحة الرعية، وفي أكثر الأحيان ينساق رجال الدين وراء رجال السياسة منفذين لهم أوامرهم ويحلون لهم ما حرم الله عز وجل، وفي أندر الأحوال يقف رجال الدين أمام رجال السياسة ولا يطاوعوهم في طغيانهم، ويقفون أمامهم وقفة الند بالند.. وهو ما حدث في هذا الفصل.

بطلنا هو الإمام الجليل أبو حنيفة النعمان وهو أول الأئمة الأربعة عند أهل السنة والجماعة وصاحب المذهب الحنفي في الفقه الإسلامي، والرجل الذي وقف أمامه هو الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، ثاني خلفاء بني العباس، ومؤسس دولتهم الحقيقي وباني مدينة بغداد عاصمة الثقافة العربية.

كان للإمام أبي حنيفة محنتان في حياته، الأولى عندما خرج زيد بن على زين العابدين على هشام بن عبد الملك، كان أبو حنيفة من المؤيدين للإمام زيد ومعارض للخليفة الأموي، وانتهت ثورة الإمام زيد بقتله، كما قتل ابنه يحي في خراسان وابنه عبد الله بن يحي ف.ي اليمن.. لقد كان لزيد بن على منزلة في نفس أبي حنيفة وكان يقدره في علمه وخلقه ودينه، واعتبره الإمام بحق، وأمده بالمال ثم رآه يقتل بسيف الأمويين ثم يقتل من بعده ابنه، ثم من بعده حفيده، فأحنقه كل ذلك وجعله يقف في صف معارضة الأمويين، الأمر الذي جعلهم يضايقونه وحمله على الهروب إلى مكة والاحتماء بحرمها الشريف

هناك، حتى نهاية الدولة الأموية وتأسيس الدولة العباسية واستيلائها على مقاليد السلطة.

أتت المحنة الثانية في حياة الإمام، عندما تولَّى أبو جعفر المنصور مقاليد الحكم، كان أبا حنيفة قد استقبل عهد العباسيين بارتياح، فقد رأى اضطهاد الأمويين لبني على بن أبي طالب وأهل بيت النبي محمد وما فعلوه معهم من قتل وتعذيب وتنكيل، واستمر على ولائه للدولة العباسية لمحبته لآل البيت جميعا ولقد كان الخليفة أبو جعفر المنصور يدنيه ويعليه ويرفع قدره ويعطيه العطايا الجزيلة، ولكنه كان يردها ولا يقبل العطاء ولم يعرف عن أبي حنيفة أنه تكلَّم في حكم العباسيين، حتى نقم عليهم أبناء علي بن أبي طالب، واشتدت الخصومة بينهم، وقد كان ولاء أبي حنيفة لبني علي، فكان طبيعيًّا أن يغضب لغضبهم، وخصوصًا أن من ثارا على حكومة أبي جعفر، هما: محمد النفس الزكية بن عبد الله بن الحسن، وأخوه إبراهيم بن عبد الله بن الحسن، وكان أبوهما عبد الله ممن اتصل به أبو حنيفة اتصالًا علميًّا، وقد كان عبد الله وقت خروج، ولديه في سجن أبي جعفر، ومات فيه بعد مقتل ولديه.

كان موقف أبو حنيفة من خروج محمد النفس الزكية على المنصور شديدًا، أخذ يجهر بمناصرته في درسه، بل وصل الأمر إلى أن ثبط بعض قواد المنصور عن الخروج لحربه، وكان هذا العمل في نظر أبي جعفر المنصور من أخطر الأعمال على دولته، لأن أبو حنيفة تجاوز فيه حد النقد المجرد والولاء القلبي إلى العمل الإيجابي، فأراد المنصور أن يختبر طاعة أبو حنيفة وولاءه له، وقد كان يبني بغداد آنذاك، فأراد أن يجعله قاضيًا للقضاة في المدينة الوليدة، امتنع أبو حنيفة عن تنفيذ رغبة الخليفة، فأصر المنصور على أن يتولى له عملًا أيا كان، فقبل أبو حنيفة أن يقوم ببعض أعمال البناء من إعداد الطين اللبن

وما شابه ذلك، فاستطاع بذلك أن يغمض عنه أعين المنصور لفترة صغيرة من الزمان.

كان أبو حنيفة بعد مناوأة بني علي للمنصور وإيذائه لهم وقتله لرؤوسهم، لا يرتاح إلى حكومته، وقد استطاع أن يدرأ عنه أذاه وانصرف إلى العلم، ولكن كان من وقت لآخر يقول بعض الأقوال أو تكون منه أمور تكشف عن رأيه فيه وفي حكومته، ومن ذلك أن أهل الموصل كانوا قد انتفضوا على المنصور، وقد اشترط المنصور عليهم أنهم إذا انتفضوا تحل دماءهم له، فجمع المنصور الفقهاء وفيهم أبو حنيفة وسألهم عن رأيهم الفقهي في ذلك الأمر، هادن معظم الفقهاء الخليفة ووافقوه على ما قال، إلا الإمام الراحل فكان معارضه الوحيد.

لقد كان أبو حنيفة يميل إلى أبناء علي بن أبي طالب، وكان ذلك يبدو على لسانه في حلقة درسه وبين تلاميذه، وكان يجهر بمخالفة المنصور في غاياته عندما يستفتيه، كما كان يمتنع عن قبول العطايا والهبات من المنصور، وكان ينقض القضاء نقدًا مرًا إذا وجد فيه ما يخالف الحق في نظره، من غير أن يلتفت إلى ما يجره ذلك النقد من ضياع روعة الأحكام، ولم يكن يدري أن نقطة الذروة لعلاقته مع الخليفة قد اقتربت.

عندما دعا أبو جعفر المنصور أبو حنيفة ليتولى القضاء، امتنع، فطلب منه رجوع القضاة إليه فيما يشكل عليهم ليفتيهم، فامتنع أيضًا، لتثور عليه ثائرة الخليفة، أنزل المنصور به العذاب بالضرب والحبس، أو الحبس وحده على اختلاف الروايات بين العلماء، ويروى أن أبو جعفر حبس أبو حنيفة، على أن يتولى القضاء ويصير قاضي القضاة، فأبى حتى ضرب مئة وعشرة أسواط، وأخرج من السجن على أن يلزم الباب، وطلب منه أن يفتي فيما يرفع إليه من الأحكام، وكان

يرسل إليه المسائل، وكان لا يفتي، فأمر أن يعاد إلى السجن، فأُعيد وغلظ عليه وضيق تضييقًا شديدًا.

اتفق الرواة على أن الإمام قد سجن في عهد أبو جعفر المنصور، وأنه لم يجلس للإفتاء والتدريس بعد ذلك، إذ أنه مات بعد هذه المحنة أو معها، ولكن اختلفت الرواية حول وفاته، هل مات محبوسًا بعد الضرب الذي تكاد الروايات تتفق عليه أيضًا؟، أم محبوسًا بالسم، فلم يكتف بضربه بل سقي السم ليعجل موته؟، أم أطلق من حبسه قبل موته فمات في منزله بعد المحنة، ومنع من التدريس والاتصال بالناس؟

لا نستطيع أن نجزم بالسبب الحقيقي حول وفاة الإمام الراحل، ولكنه توفي في رجب، وقيل في شعبان وقيل لإحدى عشرة ليلة من جمادى الأولى للعام مائة وخمسين هجريًا، وقيل إنه توفي في اليوم الذي ولد فيه الإمام الشافعي، وكانت وفاته في بغداد، ودفن في مقبرة الخيزران، وقبره هناك مشهور ويزار من الجميع.. ويروى أيضًا أن الإمام لما أحس بالموت، سجد فمات وهو ساجد، وأوصى أن يُدفن في أرضٍ طيبة، لم يجر عليها غصب، وألا يدفن في أرض قد اتهم الأمير بأنه غصبها.

عندما علم الخليفة أبو جعفر المنصور بوفاة الإمام، قال جملته الشهيرة: "من يعذرني من أبو حنيفة حيًّا وميتًا".. شيعت بغداد كلها جنازة فقيه العراق والإمام الأعظم، وصلى عليه حوالي خمسون ألف من المسلمين، حتى الخليفة المنصور نفسه صلى على قبره.

رحم الله رجلًا كان كل ذنبه في الحياة حبَّه لآل البيت، ورفضه أن يكون مجرد تابع لرجل سياسة، يحل له ما لم يحله الله، عز وجل.

هارون الرشيد وجعفر البرامكي

عندما يكون الطموح غير المشروع والزائد عن الحد، والرغبة في مناطحة الخليفة، هي المحرك الأساسي عند الشخص، يكون في نهاية ذلك الأمر نهايته، وربما نهاية عشيرته أيضًا.

هذا هو ما حدث في سيرة الوزير جعفر البرمكي، مع الخليفة العباسي الأشهر هارون الرشيد، والتي انتهت بإعدام جعفر، ونكبة كبرى للبرامكة.

البرامكة، عائلة فارسية مجوسية عريقة الأصل في التاريخ الفارسي، كان عميدهم أحد سدنة بيت النار وخدامه الكبار، ساهمت في مقارعة الأمويين وفي قيام الدولة العباسية لاحقًا، كانت لهم مآثر وفضائل في الدعوة العباسية ثم تأسيس الدولة العباسية، وبعد نجاحهم في الدعوة جعلوا أسماءهم عربية، وقد علا نجمهم أيام هارون الرشيد؛ فالأب يحيى بن خالد البرمكي، كان المسؤول عن تربية هارون الرشيد، وزوجته أرضعت هارون الرشيد، وهو الذي حافظ لهارون على ولاية العهد عندما همَّ الخليفة الهادي بخلع أخيه هارون.

أبلى يحيى، في خدمة الرشيد في الوزارة بلاءً حسنًا، حتى فوضه الخليفة كل الأمور، أما ابنه الفضل البرمكي أو جعفر، فقد كان أكبر الإخوة، وكان أخًا لهارون الرشيد في الرضاعة، والمسؤول عن تربية الأمين ابن الرشيد، وقد استطاع أن يقضي على فتنة يحيى بن عبد الله في بلاد الديلم وولي خراسان وغيرها، واتخذ من جندها جيشًا كبيرًا تعداده قرابة الخمسين ألف جندي، جعل ولاؤهم له مباشرةً وسماهم بـ "العباسية".

يرجع أصل أسرة البرامكة إلى جدهم الأول برمك المجوسي، وكان من سدنة بيت النار، ولم يتخذ الإسلام دينًا، وكانت بغداد تضم مجاميع كبيرة من الفرس الذين ساهموا مساهمةً لا نظير لها في قيام الدولة العباسية، بعضهم اتخذ الإسلام، وبعضهم تظاهر بالإسلام ظاهرًا وبقي مجوسيًّا باطنًا ومنهم الشاعر بشار بن برد، أما الشاعر أبو نواس، فقد كان فارسي الأصل من أنصار الشعوبية ([2])، وكان يحيا حياة العبث واللهو، إلى أنه مات على إسلامه، فقد قال قبل أن يموت: "عفوك إني مسلم".

أما الخليفة الأشهر هارون الرشيد، فيعتبر من أشهر الخلفاء العباسيين وأكثرهم ذكرًا حتى في المصادر الأجنبية كالحوليات الألمانية في عهد الإمبراطور شارلمان، التي ذكرته باسم "آرون"، والحوليات الهندية والصينية التي ذكرته باسم "ألون"، أما المصادر العربية فقد أفاضت الكلام عنه لدرجة أن أخباره قد امتزجت فيها حقائق التاريخ بخيال القصص، ولا سيما كتاب "ألف ليلة وليلة" التي صوَّرته بالخليفة المسرف في الترف والملذات، وأنه لا يعرف إلا اللهو وشرب الخمور ومراقصة الغانيات، والواقع إن هذا الخليفة كان من خيرة الخلفاء وأكثر من ظُلم في التاريخ، فقد كان يحج عامًا ويغزو عامًا، وقيل إنه كان يصلي في خلافته في كل يوم مائة ركعة، حتى وفاته، ويتصدق بألف دينار، وكان يحب العلماء ويعظِّم حرمات الدين، ويبغض الجدال والكلام، ويبكي على نفسه ولهوه وذنوبه، لا سيما إذا وعظ، وقد تم فتح الكثير من البلدان في زمنه، واتسعت رقعة الإسلام، واستتب الأمن وعمَّ الرخاء وكثر الخير، بما لا نظير له، ثم إن هذا الخليفة كان حسن السيرة والسريرة.

---

[2] وهي معاداة التراث العربي.

كذلك كان يصور بصورة الخليفة الحذر الذي يبث عيونه وجواسيسه بين الناس، ليعرف أمورهم وأحوالهم، بل كان أحيانًا يطوف بنفسه متنكرًا في الأسواق والمجالس، ليعرف ما يقال، والواقع أن هذه الصورة المتباينة للرشيد، ما هي إلا انعكاس للعصر الذي عاش فيه بمحاسنه ومساوئه، وهو العصر العباسي الأول أو العصر الإسلامي الذهبي، وقد تميز عصره بالحضارة والعلوم والازدهار الثقافي والديني، كذلك ازدهار الفن والموسيقى، وأسس المكتبة الأسطورية "بيت الحكمة" في بغداد، وزودها بأعدادٍ كبيرةٍ من الكتب والمؤلفات من مختلف بقاع الأرض، وكانت تضم غرفًا عديدة تمتد بينها أروقة طويلة، وخصصت بعضها للكتب وبعضها للمحاضرات وبعضها الآخر للناسخين والمترجمين والمجلدين، كما تمت في عهده أول ترجمة إلى العربية لأشهر كتابٍ علمي عُرف في التاريخ وهو كتاب الأصول "الأركان" في الهندسة والعدد لإقليدس، وتطورت العلوم خصوصًا الفيزياء الفلكية والتقنية، وأُبتكرت عدد من الاختراعات كالساعة المائية، كما أنشئ في عهده أول مصنع للورق ببغداد، وصار سوق الوراقين لاحقًا، الذي يضم مئات الحوانيت التي تبيع السلع الورقية الفاخرة، مفخرة عاصمة العباسيين، وكان ورق بغداد يقدَّر تقديرًا عاليًا في المنطقة، حتى أن بعض المصادر البيزنطية تسمي الورق بصحف بغداد، في ربطٍ مباشرٍ بينه وبين مدينة بغداد، وبدأت المدينة خلال فترة حكمه بالازدهار كمركز للمعرفة والثقافة والتجارة.

اهتم الرشيد بالإصلاحات الداخلية، فبنى المساجد الكبيرة والقصور الفخمة، وفي عهده استعملت القناديل لأول مرة في إضاءة الطرقات والمساجد، واعتنى أيضًا بالزراعة ومأسسة نظامها، فبنت حكومته الجسور والقناطر الكبيرة وحفرت الترع والجداول الموصلة بين الأنهار، وأسس ديوانًا خاصًا للإشراف على تنفيذ تلك الأعمال

الإصلاحية، ومن أعماله أيضًا تشجيع التبادل التجاري بين الولايات وحراسة طرق التجارة بين المدن، وقد شيد مدينة الواقفة قرب مدينة الرقة على ضفاف الفرات، لتكون مقرًا صيفيًّا لحكمه.

تكاثرت الأقاويل حول السبب في نكبة البرامكة، قيل إن جعفر البرمكي كان السبب؛ فهو نديم الرشيد وخليله في المجالس، وله من الأعمال الكبيرة أيضًا، فهو الذي قضى على العصبية القبلية في الشام، ثم جعل له ولاية خراسان والشام ومصر وجعله من المقربين له، حتى أنه جعله حامل خاتم السلطة.

اختلف المؤرخون فيما بينهم في السبب الذي دفع الرشيد إلى إفناء الأسرة البرمكية بكاملها، على الرغم من أعمالهم العظيمة، واختلقت روايات كثيرة أهمها أن العباسة أخت الرشيد، كانت لها علاقات غرامية مع جعفر البرمكي، إلا أن الكتبة العرب والمسلمين يرفضون هذه القصة، والأمر معهم معروف؛ فالعباسة أخت الرشيد، عربية قرشية النسب، وجعفر البرمكي، فارسي النسب، بحسب رؤيتهم، وربما كان الأمر أنه كان يختلي بها سرًا، فشاع أمرهما بين الناس، ما أثار حفيظة الخليفة العباسي الرشيد، فيما يعزو بعضهم الأمر إلى حادثة يحيى بن عبد الله الطالبي، الذي خرج إلى بلاد الديلم وأعلن الملك لنفسه هناك، وبايعه كثيرٌ من الناس، ومن ثم قويت شوكته، فأرسل إليه هارون الرشيد جعفر البرمكي، واستطاع الفضل أن يستنزل يحيى بالسلام على أمان له عند الرشيد، وذلك من غير إراقة الدماء، وعدَّ ذلك من أفضل أعمال جعفر البرمكي، وبعد فترةٍ ظهر من يحيى ما أوجب عند الرشيد نقض الأمان، فأمر بحبسه عند جعفر البرمكي، وفي ليلة اجتمع يحيى مع جعفر البرمكي، وما زال به حتى أطلقه جعفر وزوده بالمال اللازم لخروجه من بغداد، فوصل الخبر للرشيد واعتبر ذلك خيانةً عظمى عند العباسيين، لشدة خوفهم من الطالبيين،

فخاف الرشيد من تآمر آل برمك مع الطالبيين، من أجل إقصاء العباسيين، فأمر بقتل جعفر البرمكي وحبس جميع البرامكة.

أما السبب الآخر لبغض الخليفة الرشيد البرامكة، فهو أنهم كانوا يعيشون في ترفٍ لا مثيل له، رغم أن الترف مارسه كافة القادة الذين غزوا وسبوا البلدان، وكان الخليفة الرشيد واحدًا ممن استلموا ملكًا كله نتيجة غزو وسبي، وكان البرامكة يعيشون ترفًا ليس به ضريب، فقد كانوا يبنون قصورًا مزدانة حوائطها وأراضيها بالذهب والفضة، وبنى جعفر البرمكي بيتًا كلفه عشرين مليون درهم، فقد كان الخليفة الرشيد في سفر ذات يوم فوجد في كل إقليم وقرية قصورًا، وقال له الناس هذا لجعفر البرمكي، وعندما عاد جعفر البرمكي من حربه في الديلم، أطلق لمادحيه ثلاثة ملايين درهم، كل ذلك جعل الرشيد يتابعهم في الدواوين والكتابات، فاكتشف خللًا كبيرًا في مصاريف الدولة.

ومن الروايات الأخرى عن نكبة البرامكة، فقد كان الفضل بن الربيع، وهو من موالي العباسيين، وكان شديد العداء للبرامكة، ويقال إنه هو الذي سعى بهم عند الرشيد، وأظهر عيوبهم، فعيَّن الخليفة الرشيد الجواسيس حولهم، حتى استطاع أن يرصد حادثة هروب يحيى الطالبي عند جعفر البرمكي، فأخبر بها الرشيد، وزين له أن البرامكة يريدون الخلافة للطالبيين.

وقيل إن السبب الآخر في نكبة البرامكة، هو الشكوك في اعتناقهم الإسلام، فقد ذكر بعض المؤرخين أن البرامكة لم يتخلوا من مجوسيتهم، بل حاولوا إعادة المجوسية، وأنهم أدخلوا النار في الكعبة حتى تعبد هناك، والذي ساعد على ترويج هذه الفكرة، مصاحبة جعفر بن يحيى البرمكي لبعض الزنادقة، ومنهم أنس بن أبي شيخ الذي

قتله هارون الرشيد بيده، وكان الكثير من أصحاب الأصول المجوسية يتظاهرون الإسلام، لكنهم كانوا مجوسًا في دواخلهم.

ولعل المهم من جملة أسباب نقمة الخليفة الرشيد على البرامكة، هو إنشائهم جيش البرامكة، وأصل هذا الجيش كان جيش الفضل بن يحيى من جند خراسان المعروفة بولائها للعباسيين، وكان ميلهم أكثر نحو الطالبيين، أي آل البيت، وكان عدد جنده خمسين ألف رجل ولاؤهم للبرامكة مباشرةً دون غيرهم، ثم استقدم منهم عشرين ألف لبغداد، وسماهم "لكرنبية" ما أثار هواجس الرشيد، غير أنه لم يتحرك حتى جاءه خبرٌ من والي خراسان على بن عيسى بن ماهان، أن السبب في اضطراب خراسان هو موسى بن يحيى من بغداد، فتحقق الظن عند الرشيد، لهذا قرر عند رجوعه من الحج وفي آخر ليلة من شهر الله المحرم، الإيقاع بالبرامكة، فأمر بقتل جعفر وصلبه على جسر بغداد، وحبس باقي البرامكة في السجون والاستيلاء على أموالهم وقصورهم وكل ما لديهم، وسامهم في السجن سوء العذاب، وتبدَّل نعيمهم بؤسًا، وماتوا واحدًا تلو الآخر في السجون.

كانت تلك هي كل الأسباب الممكنة لحدوث نكبة البرامكة وتبدُّل نعيمهم بؤسًا، إلا أننا لا نستطيع أن نغفل طموح جعفر الكبير ورغبته في مناطحة الخليفة الرشيد ووضع رأسه برأسه، وأن يكون ندًا له دون أن يعلم أن في نهاية هذا الأمر نهايته هو وقومه.

الأمين والمأمون

من أشهر الإخوة الأنداد في التاريخ، يتواجد ابنا الخليفة العباسي الأشهر هارون الرشيد: محمد الأمين وعبد الله المأمون.

ولد الاثنان في نفس العام 170 هجريًا، كان الأمين ابن الزوجة المفضلة لهارون الرشيد، وهي زبيدة بنت جعفر، بينما كانت والدة المأمون فارسية، وتدعى مراجل، وهنا كان الصراع الأول بين العرب والفرس على ولاية العهد.

استطاعت زبيدة بنت جعفر التأثير على زوجها هارون الرشيد، وجعله يعطي ولاية العهد للأمين، وهو ما فعله هارون بالفعل في العام 186 من الهجرة حج الرشيد ومعه أبناؤه الأمين والمأمون، وهناك في البيت الحرام أخذ عليهما المواثيق المؤكدة بأن يخلص كل منهما لأخيه، وأن يترك الأمين للمأمون كل ما عهد إليه من بلاد المشرق، ثغورها وكورها وجندها وخراجها وبيوت أموالها وصدقاتها وعشورها وبريدها، على أن تكون ولاية العهد للأمين، وسجَّل الرشيد هذه المواثيق على شكل مراسيم وعلَّقها في الكعبة، لتزيد في قدسيتها، ويؤكد تنفيذها كما كتب منشورًا عامًا بهذا المعنى للآفاق وسائر البلدان، وبذلك ضمن العرب الخلافة للعربي النسب وهو الأمين، بينما ضمن الفرس زعامة الشرق بوجود المأمون.

تولى الأمين الخلافة بعد وفاة والده، وهو ابن ثلاثة وعشرين عامًا، لم تفلح تدابير هارون الرشيد والتي اتخذها في حياته من منع حدوث الفتنة بين الشقيقين، فقد أدى تولي الأمين الخلافة إلى إثارة الفتنة بينه وبين أخيه المأمون، وما أذكى نار هذه الفتنة وقوع التنافس بين رجلين قويين وكلاهما يدعى "الفضل"، كان أولهما هو الوزير الفضل بن الربيع الذي يسيطر على الأمين، والآخر هو الفضل بن سهل الذي

يسيطر على المأمون، بالإضافة إلى اتخاذ العنصر العربي والفارسي من ابني الرشيد رمزًا للصراع بين العرب والعجم، والتفاف كل فريق حول صاحبه ومحاولة إثبات كل طرف قوته على حساب الآخر والاستيلاء على السلطة والتفرُّد بها؛ فالعرب يريدون استمرار تفوقهم وسلطانهم، أما الفرس فيريدون استعادة أمجادهم القديمة كمملكة كبرى وبناء إمبراطوريتهم من جديد.

بدأ النزاع على شكل مراسلات وسفارات متبادلة بين الأخوين حول مشكلة العهد المعلَّق في الكعبة؛ فالمأمون يرى التمسك بنصوص هذا العهد الذي يقضي بالاستقلال بشؤون خراسان خلال حكم أخيه الأمين، أما الأمين فيرى نفسه خليفةً للمسلمين، ويستطيع التصرف في أمور خراسان، كما تقضي بذلك المصلحة العامة، وأن النص على ولاية المأمون لخراسان، لا يعني استقطاع هذه الولاية من الخلافة نهائيًّا، بل ينبغي أن يكون للخليفة شيءٌ من النفوذ، وذلك بأن يضع على خراسان بريدًا لهذا طالب الأمين بوضع نظام للبريد تابع له في خراسان، لكن المأمون رفض طلبه وأصر على الاستقلال بخراسان.

لا شك أن مطامع رجال الحاشية في بلاط كلٍّ من الأمين والمأمون، كانت من العوامل التي زادت في اتساع الخلاف بين الأخوين: فالفضل بن الربيع نصح الأمين بأن يستدعي أخاه المأمون إلى بغداد، حتى يظفر به كرهينة ويفصل بينه وبين جنده، وعلى الجانب الآخر كان الفضل بن سهل يوعز إلى المأمون بالاعتذار عن الذهاب إلى بغداد، بحجة أن أمور خراسان تستدعي البقاء فيها، وهنا طلب الأمين من المأمون أن يتنازل له عن بعض كور خراسان، بحجة أن مال خراسان يكفيها، أما مال العراق فلا يكفيه، إلا أن المأمون رفض ذلك الطلب وغضب الأمين من رفض المأمون لمطالبه وأرسل إليه رسالةً يخيره فيها بين

الإذعان لشروطه أو التعرض لنار لا قبل له بها، ولكن المأمون لم يأبه لهذا التهديد، ورد عليه بأنه لا يخشى في الحق لومة لائم.

استطاع الفضل بن الربيع إقناع الأمين بعزل أخيه المأمون من ولاية العهد، وأن يجعلها في ابنه موسى بن الأمين، ثم ما لبث أن خلع أخاه المؤتمن من ولاية العهد، وأعلن الأمين البيعة بولاية العهد لابنه موسى، وسماه "الناطق بالحق"، وأمر بالدعاء له على المنابر بعده، وقطع ذكر المأمون والمؤتمن، وبذلك يكون قد نكث عما أخذه عليه أبوه الرشيد من عهود ومواثيق.

أثار موقف الأمين من أخيه المأمون غضب أهل خرسان، فانحازوا إلى المأمون ضد أخيه، وكان على رأس المؤيدين هرثمة بن أعين، قائد الجند، وطاهر بن الحسين، الذي خرج على رأس جيش كبير معظمه من الفرس من خراسان، وفي المقابل جهز الأمين جيشًا مكونًا من ثمانين ألف مقاتل معظمهم من عرب البادية، وجعل عليه علي بن عيسى، وكان يكره أهل خراسان لأنهم دسوا عليه عند الرشيد فعزله من ولاية خراسان وحبسه، حتى أطلقه الأمين واتخذه قائدًا لجيشه.

التقى الجيشان على مشارف "الري" ودارت بينهما معركةً عنيفةً كان النصر فيها حليفًا لجيش المأمون بقيادة طاهر بن الحسين، وقتل علي بن عيسى، قائد جيش الأمين، وأعلن طاهر بن الحسين خلع الأمين، ونادى بالبيعة للمأمون بالخلافة، فأرسل الأمين جيشًا آخر قوامه عشرون ألف مقاتل، وجعل على رأسه عبد الرحمن بن جبلة الأبنادي، لكنه لقي هزيمةً منكرة، وقُتل الكثير من جنوده، وما لبث أن قتل هو نفسه في النهاية.

أرسل الأمين جيشًا ثالثًا بقيادة أحمد بن مزيد على رأس أربعين ألف مقاتل من عرب العراق، ولكن استطاع طاهر بن الحسين، أن

يبث جواسيسه داخل ذلك الجيش، فأشاعوا الفرقة بين قادته وجنوده، حتى اقتتلوا وانسحبوا عائدين قبل أن يلقوا خصومهم.

لم يستطع الأمين أن يجهز جيشًا آخر لملاقاة أهل خراسان، بعد أن رفض الشاميون السير معه، وانضم عدد كبير من جنوده وأعوانه إلى خصومه وفر كثير منهم إلى المدائن.

سادت الفوضى والاضطرابات بغداد عاصمة الخلافة، حتى قام الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان، بانقلابٍ ضد الأمين، وأعلن خلعه من الخلافة وحبسه هو وأمه زبيدة بنت جعفر في قصر المنصور، وأعطى بيعته للمأمون، لكن فريقًا من أنصار الأمين استطاعوا تخليصه من الأسر، وأعادوه إلى قصر الخلافة.

تقدم جيش المأمون نحو بغداد فحاصرها خمسة عشر شهرًا وضربها بالمجانيق، حتى أصيبت بأضرار بالغة وتهدمت أسوارها وأصابها الخراب والدمار وسادت فيها الفوضى وعمت المجاعات، حتى اضطر الأمين إلى بيع ما في خزائنه للإنفاق على جنوده وأتباعه، وبدأت المدينة تتهاوى حتى سقطت أمام جنود المأمون، وتم القبض على الأمين ووضعه في السجن، وفي ليلة الخامس والعشرين من شهر الله المحرم، دخل على الأمين في محبسه جماعةٌ من الفرس فقتلوه ومثلوا بجثته، وانتقلت الخلافة إلى أخيه المأمون بعد نحو خمسة أعوام من الصراع المرير والدامي بين الأخوين.

لعل السبب الأول في فتنة الأمين والمأمون، هو الصراع الخفي بين العرب والفرس على السلطة؛ فالأمين يمثل العرب، بينما يمثل المأمون الفرس، وكل طرف يرغب في بسط هيمنته وسلطانه على أرجاء البلاد، لذلك كان إيقاد الفتنة وتأجيجها بين الأخين، حتى يضمن كل طرف فوزه بتلك المعركة التي لم يخسر فيها غير الأمين والمأمون فقط.

ابن حنبل وبنو العباس

هو واحدٌ من الأئمة الأربعة الكبار، ومؤسس أحد المذاهب الفقهية الأربعة، شخصٌ غزير العلم، دمث الخلق، قوي الحفظ، فصيح اللسان.. نتكلم هنا عن الإمام أحمد بن حنبل.

لم يختر الإمام أحمد بن حنبل أن يكون ندًا لأحد، بل كلمة الحق التي كان دائمًا ينطق بها ووقوفه في وجه الخطأ الصادر من أي شخص، حتى لو كان خليفة المسلمين، هو الأمر الذي جعل بنو العباس يتخذونه ندًا لهم، ولعل أشد المحن التي تعرَّض لها ابن حنبل مع بنو العباس، هي فتنة خلق القرآن.

بدأت الأزمة عندما تعاظم نفوذ فرقة المعتزلة في عهد الخليفة المأمون، والمعتزلة فرقة كلامية ظهرت في بداية القرن الثاني الهجري في البصرة في أواخر العصر الأموي، وقد ازدهرت في العصر العباسي، وأدت دورًا رئيسًا سواء على المستوى الديني أم السياسي، ولقد غلبت على المعتزلة النزعة العقلية، فاعتمدوا على العقل في تأسيس عقائدهم وقدموه على النقل، وقالوا بالفكر قبل السمع، ورفضوا الأحاديث التي لا يقرها العقل، وقالوا بوجوب معرفة الله بالعقل، ولو لم يرد شرع بذلك، وإذا تعارض النص مع العقل، قدموا العقل لأنه أصل النص، ولا يتقدم الفرع على الأصل، والحسن والقبح يجب معرفتهما بالعقل، فالعقل بذلك موجب وآمر وناهٍ، لذلك فإنهم قد تطرفوا وغالوا في استخدام العقل، وجعلوه حاكمًا على النص، بعكس أهل السنة الذين استخدموا العقل وسيلةً لفهم النص، وليس حاكمًا عليه.

عندما تولَّى المأمون الخلافة، أحاط به المعتزلة، وكان جل حاشيته من رجالهم وأدناهم إليه وقرَبهم نحوه وأكرمهم أبلغ الإكرام، كان السبب في ذلك الميل أنه كان تلميذًا لأبي الهذيل العلاف في الأديان

والمقالات، وأبو الهذيل من رؤوس المعتزلة، ولما عقد المأمون المجالس للمناظرات والمناقشات في المقالات والنحل، كان المعتزلة هم السابقون والبارزون على الخصوم لما اختصوا به من دراسات عقلية واسعة، فكان لهم أثرٌ كبيرٌ في نفس المأمون، يجتبي منهم من يشاء لصحبته ويختار منهم من يريد لوزارته، وخصَّ منهم أحمد بن أبي دؤاد بالرعاية والعطف والتقريب، حتى إنه أوصى أخاه المعتصم بإشراكه معه في أمره.

ولما أحس المعتزلة بهذه المنزلة زينوا له إعلان قوله في خلق القرآن نشرًا لمذهبهم، وليكتسبوا إجلال العامة واحترامهم، وكان السؤال الفلسفي حول ما إذا كان القرآن مخلوقًا أم قديمًا؟ كل الطوائف أجابت بأن القرآن هو الكلمة التي لم تمسها شائبة منسوبة إلى الله العلي، بما يعنى أن القرآن كلام الله ولم يخلق، وكانت المسألة هل القرآن مخلوق، وكان هذا هو موقف ورأي المأمون ومن معه، أم أن القرآن هو كلام الله، فأعلن ذلك عام 212 من الهجرة، وناظر من يغشى مجلس مناظرته في هذا الشأن، وأدلى فيها بحججه وأدلته، وترك الناس أحرارًا في عقائدهم لا يحملون على فكرة لا يرونها ولا عقيدة لا يستسيغون الخوض في شأنها، ولكن بعدها بست سنوات، وهي السنة التي توفي فيها، بدا له أن يدعو الناس بقوة السلطان إلى اعتناق فكرة خلق القرآن، فأراد أن يحملهم على ذلك قهرًا، فابتدأ ذلك بإرسال كتبه، وهو بالرقة، إلى نائبه في بغداد إسحاق بن إبراهيم، يأمره بامتحان الفقهاء والمحدثين ليحملهم على أن يقولوا إن القرآن مخلوق.

أحضر إسحاق بن إبراهيم القضاة والمحدثين وكل من تصدى للفتوى والتعليم والإرشاد فاختبرهم وامتحنهم وأرسل إجاباتهم عن مسألته في خلق القرآن إلى المأمون، فأرسل المأمون كتابًا يبين سخف هذه الإجابات في نظره ويجرح المجيبين، ثم ذكر في هذا الكتاب عقوبات

لمن لم يقل مقالته، إذ أمر بحمل من لم يقل ذلك إليه موثقًا، وقد سارع إسحاق بن إبراهيم إلى تنفيذ رغبته، فأحضر المحدثين والفقهاء والمفتين وفيهم أحمد بن حنبل، والذي لم يذعن لسلطان المأمون، وقال كلمة الحق في وجهه وأنذرهم بالعقوبة الصارمة والعذاب العتيد إن لم يقروا بما طلب منهم ويحكموا بالحكم الذي ارتآه المأمون من غير تردد أو مراجعة، فنطقوا جميعًا بما طلب منهم وأعلنوا اعتناق ذلك المذهب إلا أربعة منهم أصروا على موقفهم إصرارًا جريئًا وهم: أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح والقواريري وسجادة، شُد الأربعة في الوثاق وكبِّلوا بالحديد وباتوا ليلتهم مصفدين في الأغلال، فلما كان الغد، أجاب سجادة إسحاق فيما يدعو إليه، فخلوا عنه وفكوا قيوده، واستمر الباقون على حالهم.

في اليوم التالي أعيد السؤال عليهم وطلب الجواب إليهم، فخارت نفس القواريري وأجابهم إلى ما طلبوا ففكوا قيوده، وبقي اثنان، فسيقا في الحديد ليلتقيا بالمأمون في طرسوس، وقد توفي محمد بن نوح في الطريق، ليتبقى الإمام أحمد بن حنبل فقط.

وبينما الجنود في الطريق بصحبة ابن حنبل، توفي المأمون، ولكنه لم يودع الدنيا من غير أن يوصي أخاه المعتصم بالاستمساك بمذهبه في القرآن ودعوة الناس إليه بقوة السلطان، وبسبب هذه الوصية فإن المحنة لم تنقطع بوفاة المأمون، بل اتسع نطاقها وزادت ويلاتها.

لم يكن المعتصم رجل علم، بل كان رجل سيف، فترك أمر خلق القرآن لأحمد بن أبي دؤاد يدبر الأمر فيه لينفذ وصية المأمون في ذلك، وأحمد بن أبي دواد، هذا هو صاحب الفكرة في حمل الناس على ذلك القول بقوة السلطان وعنف الامتحان، وهو من أشار إلى المأمون بذلك.

عندما توفي المأمون كان أحمد بن حنبل مقيدًا مسوقًا، فأعيد إلى السجن ببغداد حتى يصدر في شأنه أمر، ثم سيق إلى المعتصم واتخذت معه ذرائع الإغراء والإرهاب، فما أجدى في حمله ترغيب ولا ترهيب، فنفذوا الوعيد فأخذوا يضربونه بالسياط المرة بعد الأخرى، ولم يترك في كل مرة حتى يغمى عليه وينخس بالسيف، فلا يحس، وتكرر ذلك مع حبسه نحوًا من ثمانية وعشرين شهرًا، فلما استيئسوا منه وثارت في نفوسهم بعض نوازع الرحمة أطلقوا سراحه وأعادوه إلى بيته، وقد أثخنته الجراح وأثقله الضرب المبرح المتوالي والإلقاء في غيابات السجن، وبعد أن عاد أحمد بن حنبل إلى بيته استقر فيه وكان لا يقوى على السير واستمر منقطعًا عن الدرس والتحديث ريثما التأمت جراحه واستطاع أن يخرج إلى المسجد، فلما رُدَّت إليه العافية وذهبت وعثاء هذه المحنة عن جسمه، وإن كانت قد تركت آثارًا وندوبًا فيه وأوجاعًا في بعض أجزائه، مكث يحدِّث ويدرس بالمسجد حتى مات المعتصم.

عندما تولى الواثق الحكم، أعاد المحنة على أحمد بن حنبل، ولكنه لم يتناول السوط ويضربه كما فعل المعتصم والمأمون من قبل، إذ رأى أن ذلك زاده منزلةً عند الناس وزاد فكرته ذيوعًا ومنع دعوة الخليفة أن تذيع فوق ما ترتب على ذلك من سخط العامة ونقمة من سماهم ابن أبي دؤاد "حشو الأمة"، ولذلك لم يرد أحمد بن أبي دؤاد والواثق من بعد المعتصم أن يعيد الأذى الجسمي، بل منعه فقط من الاجتماع بالناس، فأقام ابن حنبل مختفيًا لا يخرج إلى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق، وبذلك يكون أحمد بن حنبل قد انقطع عن الدراسة مدة تزيد عن خمس سنوات، بسبب اضطهاد بنو العباس له، وبعدها عاد إلى الدرس والتحديث مكرمًا عزيزًا ترفعه عزة التقى وجلال السن والقناعة والزهادة وحُسن البلاء.

ولي الخليفة المتوكل بعد الواثق فقام بإنهاء تلك المحنة التي وقعت بأهل السنة القائلين بأن القرآن غير مخلوق، وأنهى كل ذلك اللغط

السفسطائي حتى قال فيه إبراهيم بن محمد التيمي قاضي البصرة بأن الخلفاء ثلاثة: أبو بكر الصديق الذي قاتل أهل الردة حتى استجابوا له، وعمر بن عبد العزيز الذي رد مظالم بني أمية، والمتوكل الذي محا البدع وأظهر السنة، كما قال عنه ابن الجوزي بأنه أوقد مصابيح السنة.

بعث المتوكل بعد مضي خمس سنين من ولايته بتسيير أحمد بن حنبل إليه، فلما خرج أحمد بن حنبل إلى المتوكل ردوه من بعض الطريق، ثم توفي إسحاق بن إبراهيم، وولي مكانه ابنه عبد الله بن إسحاق فنقل بعض أعداء ابن حنبل إلى المتوكل، أن أحمد بن حنبل كان يخفي بعض أحفاد علي بن أبي طالب عنده، فكتب المتوكل إلى عبد الله بن إسحاق بأن يحقق في الأمر، فأقسم أحمد بن حنبل أن ما عنده أحدًا من أولئك، وفتش منزله ومنزل ابنه صالح فلم يجدوا فيها أحدًا، فثبتت بذلك براءة أحمد بن حنبل.

استمرت حياة الإمام العصيبة حتى وافته المنية في وقت الضحى من يوم الجمعة في الثاني عشر من شهر ربيع الأول لعام 241 هجريًّا، وهو ابن سبع وسبعين عامًا، ودفن بمقبرة باب حرب، وهذا ما أكده العديد من المؤرخين منهم الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد وياقوت الحموي وابن الجوزي في المنتظم.

رحم الله الإمام أحمد والذي ذاق الويل من خلفاء بنو العباس بسبب كلمة حق قالها في وجه سلطانٍ جائر ليرضي بها رب العالمين.. ولكن السؤال الأخير هنا: إذا كان مذهب المعتزلة هو إعمال العقل، فلماذا لم يعملوه مع الإمام أحمد بن حنبل واتجهوا لأسلوب التعذيب والتنكيل؟!

شجرة الدر وتوران شاه

امرأةٌ عظيمةٌ هي.. تحدَّت الظروف الصعبة بوفاة زوجها ووجود المحتل الغربي داخل البلاد.. وقفت وصمدت وحاربت وانتصرت.. وسلَّمت السلطة بعد ذلك لابن زوجها، لينقلب عليها ويتخذها ندًا له.

نتحدث عن عصمة الدين.. "أم خليل.. الملكة العظيمة شجرة الدر، وابن زوجها توران شاه.

شجرة الدر كانت جاريةً من أصل تركي أو خوارزمي، وهناك آراء أخرى تقول إنها أرمينية اشتراها الملك الصالح نجم الدين أيوب قبل أن يكون سلطانًا، ورافقته في فترة اعتقاله في الكرك مع مملوكٍ له اسمه ركن الدين بيبرس، وأنجبت ولدًا اسمه خليل، لقِّب بالملك المنصور، وبعد ما خرج الملك الصالح من السجن ذهبت معه إلى مصر، وتزوجا هناك، وبعد أن أصبح سلطان مصر، أصبحت تنوب عنه في الحكم عندما يكون خارج البلاد.

في أبريل عام 1249م، كان الملك الصالح أيوب في الشام يحارب الملوك الأيوبيين الذين ينافسوه على الحكم، ووصلته أخبار أن ملك فرنسا لويس التاسع في قبرص، وفي طريقه لمصر على رأس حملة صليبية كبيرة، حتى يغزوها، ذهب الملك الصالح سريعًا إلى دمياط على البر الشرقي للفرع الرئيسي للنيل حتى يجهز الدفاعات لو هجم الصليبيون، وبالفعل هجم الصليبيون في شهر يونيو، نزل فرسان وعساكر الحملة الصليبية السابعة من المراكب على بر دمياط ونصبوا خيمةً حمراء للملك لويس، وانسحبت العربات التي كان قد وضعها الملك الصالح في دمياط للدفاع عنها، فاحتلها الصليبيون بسهولة وهي خالية من سكانها الذين تركوها عندما رأوا هروب العربات، فحزن الملك الصالح وأعدم عددًا من راكبي العربات بسبب جبنهم وخروجهم

عن أوامره، انتقل الصالح لمكانٍ آمن في المنصورة، وفي منتصف شهر نوفمبر توفي الملك الصالح بعد أن حكم مصر عشر سنوات.

إنها لحظة حرجة جدًا من تاريخ مصر، حينها هبَّت الملكة شجر الدر واستدعت قائد الجيش المصري الأمير فخر الدين يوسف، ورئيس القصر السلطاني الطواشي جمال الدين محسن، وقالت لهم إن الملك الصالح قد مات، وأن مصر الآن في موقف صعب من غير حاكم، وهناك غزو خارجي متجمع في دمياط، اتفق الثلاثة على أن يخفوا الخبر حتى لا تضعف معنويات الجنود والشعب ويتشجع الصليبيون، وفي السر ومن دون علم أحد، نقلت شجر الدر جثمان الملك الصالح في مركب على القاهرة، ووضعته في قلعة جزيرة الروضة، ومع أن الملك الصالح لم يوصِ قبل أن يموت بمن يمسك الحكم من بعده، فقد بعثت شجر الدر زعيم المماليك البحرية فارس الدين أقطاي الجمدار، على حصن كيفا، حتى يستدعي توران شاه ابن الملك الصالح أيوب حتى يحكم مصر بدلًا من أبيه المتوفي، وقبل أن يتوفي الصالح أيوب كان قد أعطى صحفًا على بياض لشجرة الدر حتى تستخدمها، واستخدمتها هي والأمير فخر الدين، في إصدار الأوامر السلطانية، وقالوا إن السلطان مريض ولا يستطيع مقابلة أحد، وكانوا يدخلون الطعام للغرفة التي كان من المفترض أن يكون نائمًا فيها، حتى لا يشك أحد، وأصدروا أمرًا سلطانيًّا بتجديد العهد للسلطان الصالح أيوب وتنصيب ابنه توران شاه، ولي عهد للسلطنة المصرية، وحلَّفوا الأمراء والعساكر.

وصلت أخبار وفاة الملك الصالح للصليبيين في دمياط عن طريق جواسيسهم، وفي نفس الوقت وصلت إلى دمياط إمدادات مع ألفونس دو بويتي، أخ الملك لويس، فتشجع الصليبيون وقرروا الخروج من دمياط والتوجه للقاهرة، واستطاعت قوات من الفرسان الصليبيين

بقيادة روبرت دارتوا شقيق الملك لويس، اجتياز قناة أشموم عن طريق مخاضة عرفوها عن طريق أحد قواد العربات، فهجموا فجأة على المعسكر المصري في جديلة على بعد حوالي ثلاثة كليو مترات من المنصورة، فقتل الأمير فخر الدين يوسف، وهو خارج من الحمام على صوت الضجة والصريخ، فهربت العساكر التي بغتها الهجوم غير المتوقع وذهبوا إلى المنصورة.

عرض الأمير ركن الدين بيبرس على شجر الدر، الحاكمة الفعلية لمصر في هذا الوقت، خطةً وضعها، يدخل فيها الفرسان الصليبيون المندفعون نحو المنصورة في مصيدة، فوافقت شجر الدر على الخطة، ونظَّم بيبرس وفارس الدين أقطاي الذي أصبح القائد العام للجيوش المصرية صفوف العساكر المنسحبين من جديلة داخل المنصورة، وطلب منهم ومن السكان التزام السكون التام، حتى يظن الصليبيون المهاجمون أن المدينة خالية مثل ما حصل في دمياط، وفعلًا وقع الفرسان الصليبيون في الفخ واندفعوا إلى داخل المنصورة واتجهوا نحو القصر السلطاني حتى يحتلوه، فخرجت لهم المماليك البحرية والمماليك الجمدارية فجأة وهاجموهم من كل ناحية بالسيوف والسهام، وخرج سكان المنصورة والمتطوعون وهم يرتدون خوذًا من النحاس الأبيض بدل خوذات العساكر، وضربوهم بكل ما أوتوا من قوة، وحاصر المماليك القوات الصليبية المهاجمة، وأغلقوا الشوارع والحواري، وبقى الصليبيون غير قادرين على الهروب، ولم يبقَ أمامهم سوى الموت على الأرض، أو أن يرموا نفسهم في نهر النيل ويغرقوا فيه، وأختبأ روبرت دارتوا، شقيق لويس، داخل بيت، لكن الناس وجدوه وقتلوه، وانتهت المعركة بهزيمة الصليبيين هزيمةً منكرةً في حواري المنصورة، وقتل منهم عدد كبير، لدرجة أنه لم ينج من فرسان المعبد، إلا واحدًا أو اثنين.

كان هذا أول ظهور للماليك البحرية داخل مصر كمقاتلين يدافعون عنها، وفي تلك اللحظة تحوَّل تاريخ مصر والمنطقة، عن طريق شجر الدر ورجالٍ دخلوا تاريخ مصر والعالم مثل الظاهر بيبرس وعز الدين أيبك وقلاوون الألفي، وغيرهم كثيرون.

وصل توران شاه إلى المنصورة بعد هذا الهجوم الأخير بعشرة أيام في السابع عشر من شهر ذي القعدة للعام 667 من الهجرة، وتسلَّم السلطان الشاب مقاليد الحكم، وأعلن رسميًّا وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب وولاية توران شاه حكم مصر والشام، بدأ توران شاه في التخطيط لهجومٍ جديدٍ على الصليبيين وكانت حالة الجيش الصليبي قد ساءت، وبدأ بالانسحاب ناحية دمياط، بينما ارتفعت معنويات الجيش المصري لعنان السماء للانتصارات السابقة، وخاصة انتصار المنصورة، ولوصول توران شاه في الوقت المناسب.

وبعد خطة بارعة وضعها توران شاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب، استطاع الجيش المصري أن يلتقي مرةً أخرى مع الصليبيين عند مدينة فارسكور في أوائل شهر الله المحرم للعام التالي، بعد أقل من شهرين من موقعة المنصورة الكبيرة، ودارت هناك معركة هائلة تحطم فيها الجيش الصليبي تمامًا، بل وأسر الملك لويس التاسع نفسه، ووقع جيشه بكامله ما بين قتيلٍ وأسير، وسيق الملك لويس مكبَّلًا بالأغلال إلى المنصورة، حيث حبس في دار فخر الدين إبراهيم بن لقمان، ووضعت شروط قاسية على الملك لويس التاسع ليفتدي نفسه من الأسر، وكان من ضمنها أن يفتدي نفسه بثمانمائة ألف دينار من الذهب يدفع نصفها حالًا ونصفها مستقبلًا، على أن يحتفظ توران شاه بالأسرى الصليبيين، حتى يتم دفع بقية الفدية، بالإضافة إلى إطلاق سراح الأسرى المسلمين وتسليم دمياط للمسلمين، وهدنة بين الفريقين لمدة عشر سنوات.

لقد كان انتصارًا باهرًا بكل المقاييس، وتم بالفعل جمع نصف الفدية بصعوبة، وأطلق سراح الملك لويس التاسع إلى ولاية عكا، والتي كانت إمارةً صليبيةً في ذلك الوقت.

بعد هذا النصر تنكَّر السلطان الجديد لشجر الدر، وبدلًا من أن يحفظ لها جميلها، بعث يتهددها ويطالبها بمال أبيه وإرثه منه، فكانت تجيبه بأنها أنفقته في شؤون الحرب وتدبير أمور الدولة، فلما اشتد عليها، شعرت بالخوف منه وذهبت إلى القدس خوفًا من غدر السلطان وانتقامه منها.

ولم يكتف توران شاه بذلك، بل امتد حنقه وغيظه ليشمل أمراء المماليك أصحاب الفضل الأول في تحقيق النصر العظيم وإلحاق الهزيمة بالحملة الصليبية السابعة، وبدأ يفكر في التخلص منهم.. بيد أن نفس التفكير كان يراود المماليك أيضًا.

في صباح يوم السابع والعشرين من شهر الله المحرم لنفس عام الانتصار على الصليبيين، كان السلطان توران شاه يتناول طعام الإفطار في خيمته السلطانية، فهجم عليه مجموعة من المماليك بعد شكوكهم بنواياه تجاههم ومنهم بيبرس البندقداري، وقلاوون الصالحي، وأقطاي الجمدار، وضربوه بالسيوف، فهرب منهم لكشكٍ خشبي فأحرقوه عليه، فهرب منه ورمى نفسه بالنيل فضربوه بالسهام والنبال، فقتل جريحًا غريقًا حريقًا، وبمقتله سقطت دولة الأيوبيين بمصر، بوفاة آخر سلاطينها وقامت دولة المماليك.

وجد المماليك أنفسهم في وضعٍ جديد، فهم اليوم أصحاب الكلمة الأولى في البلاد ومقاليد الأمور في أيديهم، ولم يعودوا أداة في يد من يستخدمهم لتحقيق مصلحة أو نيل هدف، وعليهم أن يختاروا سلطانًا

للبلاد، وبدلًا من أن يختاروا واحدًا منهم لتولي شؤون البلاد، اختاروا شجر الدر لتولي هذا المنصب الرفيع.

أخذت البيعة للسلطانة الجديدة ونقش اسمها على العملة بالمستعصمية الصالحية ملكة المسلمين، والدة خليل أمير المؤمنين.

ما إن جلست شجر الدر على العرش حتى قبضت على زمام الأمور وأحكمت إدارة شؤون البلاد، وكان أول عمل اهتمت به هو تصفية الوجود الصليبي في البلاد، غير أن الظروف لم تكن مواتية لأن تستمر في الحكم طويلًا، فعلى الرغم مما أبدته من مهارة وحزم في إدارة شؤون الدولة وتقربها إلى العامة وإغداقها الأموال والإقطاعات على كبار الأمراء، فقد لقيت معارضةً شديدةً داخل البلاد وخارجها، وخرج المصريون في تظاهرات غاضبة تستنكر جلوس امرأة على عرش البلاد، وعارض العلماءُ ولاية المرأة الحكم، وقاد المعارضة الشيخ الجليل العز بن عبد السلام، لمخالفة جلوسها على العرش للشرع، بعد ذهاب الولاية للمرأة.

في الوقت نفسه ثارت ثائرة الأيوبيين في الشام لمقتل توران شاه واغتصاب المماليك للحكم بجلوس شجر الدر على سدة الحكم، ورفضت الخلافة العباسية في بغداد أن تقر صنيع المماليك، فكتب الخليفة المستعصم إليهم وقال جملته الشهيرة: "إن كانت الرجال قد عُدمت عندكم، فأعلمونا حتى نسيِّر إليكم رجلًا".

لم تجد شجر الدر إزاء هذه المعارضة الشديدة بُدًا من التنازل عن العرش للأمير عز الدين أيبك، أتابك العسكر، الذي تزوجته وتلقَّب باسم الملك المعز، وكانت المدة التي قضتها على عرش البلاد ثمانين يومًا فقط، وعلى الرغم من قلة المدة، فقد سطرت اسمها بحروف من ذهب في صفحات التاريخ المصري والإسلامي.

انقلب أيبك على شجرة الدر بعدما أحكم قبضته على الحكم في البلاد، وتخلص من منافسيه في الداخل ومناوئيه من الأيوبيين في الخارج، وتمرس بإدارة شئون البلاد، وبدأ في اتخاذ خطوات للزواج من ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، غضبت شجر الدر لذلك وأسرعت في تدبير مؤامرتها للتخلص من أيبك، فأرسلت إليه تسترضيه وتتلطف معه وتطلب عفوه، فانخدع لحيلتها واستجاب لدعوتها وذهب إلى القلعة، حيث لقي حتفه هناك على يد عبيد استأجرتهم شجرة الدر لتلك المهمة.

أشاعت شجر الدر أن المعز لدين الله أيبك قد مات فجأةً بالليل، ولكن مماليك أيبك لم يصدقوها فقبضوا عليها وحملوها إلى امرأة عز الدين أيبك التي أمرت جواريها بقتلها بعد أيام قليلة، فقاموا بضربها بالقباقيب على رأسها، وألقوا بها من فوق سور القلعة، ظلَّت جثة الملكة شجرة الدر على الطريق عارية ولم تدفن إلا بعد عدة أيام من وفاتها، لتكون نهاية درامية جديرة بملكة عظيمة جلست على سدة الحكم في البلاد، في واحدةٍ من أحرج فترات التاريخ المصري.

قطز وبيبرس

أندادنا هذه المرة هما من تصديا جنبًا بجنب لدحر خطر المغول عن مصر وبقية العالم، ليتحقق لهم الانتصار في النهاية في معركة "عين جالوت"، ليغتال أحدهما الآخر وهما في طريق العودة، خوفًا من أن يغتاله هو!

عن قطز وبيبرس نتحدث.. عن الصداقة التي انتهت بمقتل سيف الدين قطز، قاهر المغول على يد صديقه والذي تولى الحكم ليصبح فيما بعد الملك الظاهر بيبرس.

ولد قطز أو الأمير محمود بن ممدود الخوارزمي في أسرة ملكية بمملكة خوارزم شاه بفارس، ولد محمود للأمير ممدود ابن عم وزوج أخت السلطان جلال الدين الخوارزمي، ونشأ نشأة الأمراء وتدرب فنون القتال على يد خاله جلال الدين نظرًا لاستشهاد أبيه، وهو ما يزال رضيعًا في حروب المسلمين الأولى ضد المغول، وكان اسمه وقتها محمود، ثم دارت الدائرة على مملكة جلال الدين وقضى المغول عليه وعلى ملكه، وأسر الأمير محمود وبيع عبدًا في السوق لثري من أثرياء الشام، فربَّاه الثري وأحسن تربيته فتعلم اللغة العربية وأصولها وحفظ القرآن الكريم ودرس الحديث، وبعد موت الثري أصبح قطز مملوكًا لابن الثري، ولم يجد منه عنايةً وحسن تعامل، فبيع قطز لثري آخر من أثرياء الشام، وكان هذا الثري مدخلًا لقطز لدخول الحياة السياسية والجهاد ضد الصليبيين، فهذا الثري هو ابن واحد من أكبر معاوني العالم العربي الجليل العز بن عبد السلام، فتربَّى قطز تربيةً جديدةً وجاءت الحروب الصليبية على الشام ومن ضمنها دمشق، وعندما تخلى الصالح إسماعيل عن جهاد الصليبيين وهادنهم، نهض الملك الصالح نجم الدين أيوب للدفاع عن المسلمين، فاشترك قطز من

ضمن المدافعين من أهل دمشق مع الجيش المصري، وكان له دور مع بقية أهل الشام في انتصار المسلمين على الصالح إسماعيل وأعوانه من الصليبيين.

وكان المغول هم الذين أطلقوا على محمود ابن الأمير ممدود اسم قطز، وهذه الكلمة بالتترية تعني الكلب الشرس، فقد كان واضحًا على قطز علامات القوة والبأس من صغره، فلذلك أطلق عليه المغول هذه الكلمة.

أما بيبرس فهو مختلف في أصله، فبينما تذكر جميع المصادر العربية والمملوكية الأصلية أنه تركي واسمه بيبرس، وهو اسم تركي مؤلف من "بي" أي أمير و"برس" أي فهد، فإن بعض الباحثين المسلمين في العصر الحديث يشيرون إلى أن مؤرخي العصر المملوكي من عرب ومماليك كانوا يعتبرون الشركس من الترك، وأنهم كانوا ينسبون أي رقيق مجلوب من مناطق القوقاز والقرم للقبجاق، وذكر المقريزي بأنه وصل حماة مع تاجر وبيع على الملك المنصور محمد حاكم حماة، لكنه لم يعجبه، فأرجعه وذهب التاجر به إلى سوق الرقيق بدمشق وهو في الرابعة عشرة من عمره، وباعه هناك بثمانمئة درهم، لكن الذي اشتراه أرجعه للتاجر لعيبٍ خلقي كان في إحدى عينيه، فاشتراه الأمير علاء الدين أيدكين البندقداري، ثم انتقل بعد مصادرة ممتلكات سيده علاء الدين أيدكين إلى خدمة السلطان الأيوبي الملك الصالح نجم الدين أيوب بالقاهرة، ثم أعتقه الملك الصالح ومنحه الإمارة فصار أميرًا، كان بيبرس ضخمًا طويلًا ذا شخصية قوية وصوته جهوري وعيناه زرقاوان، ويوجد بإحدى عينيه نقطة بيضاء، وقد يكون سبب زرقة عينيه أن أصله كان مختلطًا، كان شعار دولته الأسد، وقد نقش صورته على الدراهم.

شارك قطز وبيبرس جيش الملك الصالح نجم الدين أيوب في صد الحملة الصليبية السابعة، وتمثلت شجاعة المماليك في الانتصار

الكبير الذي حققوه في معركة المنصورة، والتي أسر فيها الملك لويس التاسع قائد الحملة، وكانت من أهم أحداث معركة المنصورة إعلان وفاة الملك الصالح وتنصيب توران شاه ملكًا لمصر، ومن أهم نتائج المعركة أيضًا وصول المماليك لحكم مصر والقضاء على الدولة الأيوبية، بوفاة آخر حكامها توران شاه.

بعد أن قررت شجرة الدر التنازل عن الحكم، اختارت عز الدين أيبك التركماني الصالحي خليفةً لها بعد زواجها منه، وقد وافق أمراء المماليك -وقطز أحدهم- على اختيار أيبك كأول سلاطين الدولة المملوكية، وقد شارك قطز السلطان أيبك في هزيمة الأيوبيين بقيادة الملك الناصر في معركة عند بلدة العباسة بين الصالحية وبلبيس، وعندما دب الخلاف بين عز الدين أيبك وفارس الدين أقطاي، قرر أيبك إنشاء فرقة من المماليك عرفوا فيما بعد ب"المماليك المعزية"، نسبةً إلى لقب عز الدين أيبك، الملك المعز، وعين مملوكه قطز المعزي نائبًا للسلطنة في مصر، ولما أحس أيبك بخطر الأمير أقطاي وخطر فرقته المماليك البحرية، خشي أيبك على حياته بعد أن وصلته أخبار عن عزم أقطاي اغتياله، فدبر أيبك خطة لاغتيال أقطاي بمساعدة نائبه قطز وبعض مماليكه المعزية، استدعى أيبك غريمه أقطاي للمثول أمامه في القلعة لاستشارته في بعض الأمور، وفي الميعاد المحدد حضر أقطاي إلى القلعة ومعه عددٌ من مماليكه، ودخل باب القلعة المؤدي لقاعة العواميد، وتم إغلاق الباب ومنعت المماليك البحرية من الدخول، وبسرعة انقض عليه الأمير قطز ومن معه من المماليك المعزية وقتلوه بالسيوف، وألقي برأسه إلى المماليك البحرية، ففر المماليك البحرية من مصر إلى سوريا والكرك وسلطنة الروم السلاجقة وأماكن أخرى، وكان في مقدمتهم بيبرس وقلاوون الألفي وبلبان الرشيدي وسنقر الأشقر الذين فروا إلى دمشق.

ثم وقع الخلاف بين أيبك وزوجته شجرة الدر بسبب تمرده عليها، وعدم إشراكها في حكم مصر، وبسبب تخلصه من المماليك البحرية، وما زاد الأمر سوءًا عزم أيبك الزواج من ابنة ملك الموصل بدر الدين لؤلؤ، فعزمت شجرة الدر على قتل أيبك، وكان لها ما أرادت وقتل خمسة من غلمانها أيبك وهو في الحمام، وبعد انتشار خبر وفاة الملك المعز، حاولت شجرة الدر إخفاء واقعة القتل، حيث ادعت أن أيبك وقع من فوق جواده، إلا أن مماليك السلطان المعز بقيادة الأمير قطز كشفوا حقيقة قتلها للسلطان، وقرروا قتلها وتسليمها لزوجة أيبك الأولى، والتي أمرت جواريها بضربها بالقباقيب، حتى فارقت الحياة.

صمم المماليك المعزية وعلى رأسهم سيف الدين قطز على أن يقيموا على العرش الذي بات شاغرًا بمصرع أيبك، صبيًا صغيرًا في الخامسة عشرة من عمره، وهو نور الدين علي، ابن سيدهم عز الدين أيبك، ولقبوه بالملك المنصور علي، وقد رفض بعض المماليك الاعتراف بالسلطان الصغير، وتجسَّد رفضهم في عدة اضطرابات عاصفة استنجدت بعض الفئات المتنازعة بملوك بني أيوب في الشام، وحاول المغيث عمر صاحب إمارة الكرك غزو مصر مرتين، ولكن الفشل حالفه، وكانت كل هذه الاضطرابات فرصة جيدة ومناسبة لظهور نجم سيف الدين قطز، فبعد أن عزم المماليك الصالحية داخل مصر على الانقلاب على المماليك المعزية وقائدهم قطز، وحاولوا تنصيب الأتابك سنقر الحلبي سلطانًا لمصر، سارع قطز باعتقاله وحبسه في سجن القلعة، وتطورت الأمور بهروب الكثير من المماليك المعارضين إلى الشام، فطاردهم قطز وقبض على الكثير منهم وسجنهم في سجون القلعة.

استقرت الأمور نسبيًّا لقطز في مصر وخلا له الجو، فصار نائب السلطان وصار المدبر والحاكم الفعلي لمصر، إذ إن السلطان الجالس

على العرش طفل صغير، وكان جلوس السلطان الصبي على العرش مسألةً الغرض منها كسب الوقت، حتى يتمكن واحد من كبار المماليك من حسم المسألة لطرفه، ولم يشأ قطز أن يتعجل الأمور بحسم أمر السلطة له ومواجهة المنافسين بعد وفاة عز الدين أيبك، فأمسك بزمام السلطة الفعلية تاركًا للسلطان الصبي شعار السلطنة ولقبها.

ثم بدأ قطز بترتيب الأوضاع الداخلية لصالحه، في حين كانت الشائعات تملأ سماء القاهرة بأن السلطان الصغير يريد خلع قطز مملوك أبيه، واجتمع الأمراء في بيت أحد كبارهم وتكلموا، إلى أن نجحوا في إصلاح الأمور بين الملك المنصور علي وبين مملوك أبيه الأمير قطز، وبذلك توطدت مكانة سيف الدين قطز في الدولة.

بعد قرابة ثلاث سنوات من حكم نور الدين علي بن أيبك، مصر بدأ صدى طبول الحروب التتارية يتردد على حدود مصر، واقتربت رياح الغزو المغولي لبلاد الشام ومصر، ولم يكن بوسع السلطان الصبي نور الدين علي أن يفعل شيئًا إزاء خطر المغول الداهم والقريب، إذ كان يقضي وقته في ركوب الحمير والتنزه في القلعة واللعب بالحمام مع الخدم، ومع كل خبر جديد يصل عن وحشية المغول في البلاد التي يقومون بغزوها، كانت الأحوال في مصر تزداد اضطرابًا، ومع اقتراب جحافل المغول من الشام، أرسل الملك الناصر رسالةً حملها المؤرخ والفقيه كمال بن العديم إلى مصر يستنجد بجيشها، قدم ابن العديم إلى القاهرة عقد مجلس في القلعة حضره السلطان الصبي المنصور نور الدين علي، وحضره كبار أهل الرأي من العلماء والقضاة مثل قاضي القضاة بدر الدين حسن السنجاري، والشيخ الجليل العز بن عبد السلام، وكان من بين الحاضرين سيف الدين قطز، وكان هذا الاجتماع آخر خطوات قطز نحو وصوله لعرش مصر وقتال المغول، فقد استغل قطز اجتماع القلعة لخلع السلطان الصبي، وأخذ في الاجتماع يتحدث عن مساوئ المنصور علي وقال إنه لا بدَّ من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو، والملك الصبي لا يعرف تدبير

الملك، وساعد قطز في الوصول لهدفه أن مساوئ السلطان المنصور علي كانت قد زادت حتى انفض الجميع من حوله، واستهتر في اللعب وتحكمت أمه في أمره، فاضطربت الأمور، وانتهز قطز الفرصة المناسبة عندما خرج أمراء المماليك البحرية والمعزية في رحلة صيد في منطقة العباسية في الشرقية، وعلى رأسهم الأمير سيف الدين بهادر والأمير علم الدين سنقر الغتمي، وقبض قطز على السلطان المنصور علي وأخيه قاقان وأمهما، واعتقلهم في أحد أبراج القلعة، وفي هذا اليوم انتهت مدة حكم السلطان المنصور علي والتي استمرت سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام، وحين قدم المماليك من رحلة الصيد بقيادة سيف الدين بهادر، وعلم الدين سنقر، أنكروا على قطز ما فعله، فأخبرهم بخطر المغول القادم على بلاد الشام ومصر، الذي يستلزم سلطانًا قويًا يواجههم.

أصبح خطر المغول يهدد مصر بعد أن تمكنوا من الاستيلاء على جميع الإمارات والدول والأراضي الإسلامية، حتى وصلت سلطتهم إلى غزة، ولم يبق بينهم وبين مصر إلا معركة الحسم، بدأ السلطان قطز التحضير لمواجهة المغول، وكان أول أمر يصدره العفو العام والشامل عن المماليك البحرية الذين فروا إلى الشام بعد مقتل زعيمهم فارس الدين أقطاي، وعلى رأسهم صديقه السابق بيبرس، كانت هذه الخطوة أبرز قرار سياسي اتخذه قطز، فقوات المماليك المعزية لا تكفي لحرب المغول، وكانت المماليك البحرية قوة عظيمة وقوية ولها خبرة واسعة في الحروب، فإضافة قوة المماليك البحرية إلى المماليك المعزية الموجودة في مصر، ستنشئ جيشًا قويًا قادرًا على محاربة المغول، استقبل قطز بيبرس استقبالًا لائقًا وعظم شأنه وأنزله دار الوزارة وأقطعه قليوب وما حولها من القرى، وجعله في مقدمة الجيوش في معركة عين جالوت.

قام سيف الدين قطز بتقسيم جيشه لمقدمة بقيادة بيبرس، وبقية الجيش يختبئ بين التلال وفي الوديان المجاورة كقوات دعم أو لتنفيذ

هجوم مضاد أو معاكس، فقامت مقدمة الجيش بقيادة بيبرس بهجومٍ سريع، ثم انسحبت متظاهرةً بالانهزام لسحب خيّالة المغول إلى الكمين، وانطلت الحيلة على كتبغا، قائد جيش المغول، فحمل بكل قواه على مقدمة جيش المسلمين واخترقه، وبدأت المقدمة بالتراجع إلى داخل الكمين، وفي تلك الأثناء خرج قطز وبقية مشاة وفرسان الجيش، وعملوا على تطويق ومحاصرة قوات كتبغا، فعندئذ استعرّ القتال ولم يمض كثير من الوقت حتى هزم الجيش المغولي وقتل معظمهم بمن فيهم قائدهم كتبغا، ويعد بيبرس هو المهندس العسكري لمعركة عين جالوت.

بعد انتصار قطز على المغول في عين جالوت، ساق وراءهم لتحرير باقي مدن الشام، فتحررت دمشق وحماة وحمص، وأرسل بيبرس ليطرد المغول من حلب ويتسلّمها، ووعده بنيابتها، فلما طردهم منها وتسلَّمها المسلمون، استناب عليها غيره، وهو علاء الدين ابن صاحب الموصل، وكان ذلك هو المسمار الأول في نهاية العلاقة الطيبة بين قطز وبيبرس.

كانت نهاية سيف الدين قطز بعد معركة عين جالوت بخمسين يومًا فقط، اتفق المؤرخون على أن قطز قُتل وهو في طريق عودته من دمشق إلى القاهرة في منطقة تسمى الصالحية، فبعد الانتصارات المتتالية والجيش في طريقه لمصر خرج قطز للصيد، فضرب دهليزه وساق خلف أرنب وساق معه بيبرس ومعه الأمراء الذين اتفقوا على قتله، فشفع بيبرس في شيء، فشفعه، فأخذ يده ليقبلها، فأمسكها وحمل عليه الأمراء بالسيوف فضربوه بها وألقوه عن فرسه ورشقوه بالنشاب حتى قتلوه، ثم كروا راجعين إلى المخيم وبأيديهم السيوف مصلتة، فأخبروا خبرهم فقال بعضهم: من قتله؟ فقالوا: ركن الدين بيبرس.. فقالوا له: أنت قتلته؟ فقال: نعم. فقالوا: أنت الملك إذًا يا خوند.

وقيل أيضًا إن قطز عندما ضربه الأمراء المماليك وقبل موته جاءت مجموعة من أمرائه الذين يؤيدونه لأنهم شكوا في الأمراء الذين خرجوا معه، وإذا هناك أمر قد حدث بالفعل.. فسأل قطز عن سبب ذلك الفعل، فأجابه بيبرس أنه شك أنه يريد قتله، كما قتل أميره فارس الدين أقطاي في قلعة الجبل، وأنه غضب لنزعه ولاية حلب، فأخبره قطز أنه كان سيعطيه السلطان، وعفا عنه لأنه أراحه من غم العيش بعد مقتل زوجته جلنار بنت جلال الدين السلجوقي، وأمر بتعيينه ملكًا على الدولة المملوكية.

بعد مبايعة بيبرس على ملك مصر، دقت الطبول فرحًا بذلك، ودخل قلعة الجبل وجلس على كرسيها، وقد لقَّب نفسه أول مرة بالقاهر، فقال له أحد وزرائه إن هذا اللقب لا يفلح من تلقب به، تلقب به القاهر بن المعتضد، فلم تطل أيامه حتى خلع وسملت عيناه، ولقب به القاهر صاحب الموصل، فسمم ومات، فعدل بيبرس عنه حينئذ إلى الملك الظاهر، استمر حكمه سبعة عشر عامًا أكمل فيها الحرب ضد المغول والصليبيين وأحيا الخلافة العباسية من جديد، ونهض بالبلاد نهضةً إنشائيةً واقتصاديةً لم يسبق لها مثيل، حتى وافته المنيّة، وقيل إن بعض مماليكه قد دسوا له السم في الطعام.

مملوكان غيَّرا تاريخ المنطقة إلى الا بدَّ، حاربا المغول وأنهيا زحفهم لاحتلال العالم.. وكانت نهاية أحدهما على يد الآخر.

بركة خان وهولاكو

آخر أندادنا لهذا الجزء الأول، قد يكون أولهم غير معروف للكثيرين.. يعد هذا الرجل من أكثر المظلومين في صفحات التاريخ، بل زاد الأمر سوءًا أن ابن عمه، والذي عاث في الأرض دمارًا وفسادًا ودمَّر مدنًا، وأهلك الكثير من الأرواح وارتكب أكبر مجزرة ثقافية بتدمير مكتبة بغداد، يكون معروفًا عنه.. فتقريبًا لا يوجد أحد لم يسمع عن هولاكو، قائد المغول، وبطلهم الأسطوري وحفيد مؤسس دولتهم جنكيز خان، ولكن قلة قليلة فقط من سمعوا عن ابن عمه المسلم الذي حاربه طيلة سنوات حياته "بركة خان".

هو بركة خان بن جوجي بن جنكيز خان، وقد ورث منصب أبيه وأصبح زعيمًا للقبيلة الذهبية التي تعد أولى قبائل التتار إسلامًا وأكثرها تعاطفًا وتأدبًا مع المسلمين.

دخل بركة خان الإسلام في العام ستمائة وخمسين من الهجرة، وكان من قبل محبًا ومتأثرًا بالإسلام بسبب امرأة أبيه رسالة، والتقى بركة خان في مدينة نجارى، مع أحد علماء المسلمين، واسمه نجم الدين مختار الزاهدي، وكان بركة عائدًا لتوه من زيارة عاصمة المغول قرة قورم، وأخذ بركة في الاستفسار عن الإسلام من هذا العالم المسلم، وهو يجيبه بكل وضوح وسلاسة، فطلب بركة منه أن يؤلّف له رسالة تؤيد بالبراهين، رسالة الإسلام، وتوضح بطلان عقائد التتار والتثليث، وترد على المخالفين والمنكرين للإسلام، فألَّف الزاهدي الرسالة، ودخل بركة خان الإسلام، إثر قراءتها عن حب واقتناع وإخلاص ورغبة عارمة في نصرة هذا الدين.

لم يكن دخول بركة خان الإسلام كدخول آحاد الناس، بل دخل الإسلام بطلًا ملكًا سلطانًا لقبيلةٍ مغولية، والمغول وقتها هم الكابوس

المفزع للبشرية جمعاء وللمسلمين خاصة، لذلك جاءت أعمال هذا البطل العظيم على نفس المستوى الفائق من المسئولية والقيادة، وتحول هذا السلطان الوثني إلى جندي من أخلص جنود الإسلام، شديد الحب والتفاني في نصرة الدين وأهله، فضرب أروع الأمثلة في الولاء والبراء، في الوقت الذي كان هولاكو يخطط لتدمير ومحو الإسلام من الوجود إلى الا بدَّ.

بعدما أعلن بركة خان إسلامه، كان أول ما فعله أن أرسل ببيعته للخليفة العباسي المستعصم ببغداد، وهذا الإجراء رغم أنه بسيط وبه كثير من الشكلية، لأن خليفة المسلمين وقتها لم يكن له أي نفوذ حقيقي إلا على مساحةٍ ضيقةٍ من الأرض بعد استقلال العديد من الدول الصغير وتأسيس دول جديدة فيها كالدولة الطولونية، والدولة الفاطمية، والدولة الأيوبية، فقد أعطى صورةً واضحةً جليةً عن ولاء بركة خان لسلطان المسلمين وانضوائه تحت جماعته.

بعدما اعتلى بركة خان رئاسة القبيلة الذهبية، أخذ في إظهار شعائر الإسلام، فأكمل بناء مدينة سراي، وهي مدينة سراتوف الآن في روسيا على نهر الفولجا، وجعلها عاصمة القبيلة الذهبية، وبنى بها المساجد والحمامات ووسّعها جدًا، حتى صارت أكبر مدن العالم وقتها، وجعلها على السمت الإسلامي الخالص.

كان هولاكو في هذا الوقت يفكر في استكمال الهجوم على بلدان المسلمين، فحاول إقناع أخيه الأكبر مونكو خان بهذه الفكرة، وبالفعل وافق على الفكرة ورحب بالهجوم على باقي بلاد المسلمين، وبدأ هولاكو في الإعداد لذلك، وما أن وصلت الأخبار إلى بركة خان، حتى التهبت مشاعره وأسرع إلى أخيه باتو، وألح عليه في منع الهجوم على المسلمين، ولكنه لم يستطع ذلك، وبدأ الهجوم المغولي على أراضي المسلمين حتى سقطت بغداد.

استغل بركة خان، خروج الخان الأعظم مونكو لقتال بعض الخارجين عليه، ومعه أخوه قوبلاي خان، وتركْ أخيه الآخر، وارتقى بوكا مكانه لتسيير الأمور لحين عودته، استغل بركة خان وفاة مانغو في الطريق لإثارة الفتنة بين أرتق بوكا وقوبلاي، حيث اتفق الجند والأمراء على تولية قوبلاي، فأرسل بركة خان إلى أرتق بوكا بقوة عسكرية لمنازعة أخيه قوبلاي على منصب الخان الأعظم، وحرَّض أيضًا أسرة أوقطاي خان على مساعدة أرتق بوكا، ووقعت الحرب بينهما قبل معركة عين جالوت بقليل، ما جعل هولاكو يعود مسرعًا من الشام لفض النزاع وترك قيادة جيش المغول لزوج ابنته كتبغا.

عاد هولاكو إلى تبريز كي يكون قريبًا من اختيار الحاكم الأعظم الجديد للمغول الذي سيكون أخاه قوبلاي خان، التقى جيش المسلمين بجيش المغول في موقعة عين جالوت بفلسطين، وحمل المسلمون على المغول الذين كانوا تحت قيادة كتبغا حملةً صادقةً وقاتلوهم باستبسالٍ وشجاعةٍ من الفجر حتى منتصف النهار، فكتب الله لهم النصر وهُزِم المغول للمرة الرابعة، ومُحي جيشهم المهاجم عن بَكرة أبيه، بعد أن كانت القلوب قد يئست من النصر عليهم.

دخل بركة خان في حلفٍ مع المماليك الذين أبهروا العالم عندما انتصروا على المغول في موقعة عين جالوت، وكثرت المراسلات والاتصالات بينه وبين السلطان الظاهر بيبرس، وكان لها أثرٌ كبيرٌ في توجيهه لحربٍ ضد هولاكو، وبالفعل اتفق بركة خان وبيبرس على محاربة هولاكو، وكتب بركة خان رسالةٍ إلى بيبرس يقول له فيها: "قد علمت محبتي للإسلام، وعلمت ما فعل هولاكو بالمسلمين.. فاركب أنت من ناحية حتى آتيه أنا من الناحية الأخرى فنهزمه أو نخرجه من البلاد، وأعطيك جميع ما كان بيده من البلاد".

لم يكتف بركة خان بمناصرة المسلمين، فلقد انقلب حربًا ضروسًا على المغول الوثنيين عمومًا، وعلى هولاكو خصوصًا. لم ينس بركة خان ما فعله هولاكو بالخلافة العباسية أبدًا عندما اكتسح بجحافله بغداد مدمرًا كل ما في طريقه، في أحد أكبر المجازر البشرية في التاريخ، فقد حاول بركة خان بشتى الوسائل أن يوقف هذا المد الجارف الذي ينذر بمحو الإسلام من الوجود، ولكن لأن معظم جنوده كانوا لا يزالون على الوثنية، فقد رفضوا الانصياع لأمره بمحاربة هولاكو؛ لأنهم بذلك سيخالفون الخان الأعظم للمغول، والذي قد وافق على الهجوم على بغداد.

أخذ بركة خان في اختلاق الذرائع والحجج لإشعال الحرب ضد هولاكو ووجد ضالته في مسألة الغنائم، حيث كان من تقاليد جنكيز خان، أن أسرة جوجي لها ثلث الغنائم التي يحصل عليها المغول جميعًا في أي معارك يخوضونها، وبالقطع لم تكن الغنائم دافعًا لبركة خان، فأرسل بركة رسلًا من طرفه وأمرهم أن يشتدوا ويغلظوا على هولاكو في السؤال، وبالفعل نجحت الحيلة واستشاط هولاكو غضبًا وقتل رسل بركة خان وسير جيشًا لمحاربته، فانهزم جيش هولاكو شر هزيمة، فعاود الهجوم مرةً أخرى بجيشٍ أكبر، فانهزم جيش بركة خان وكان يقوده أحد قواده واسمه نوغاي، فأراد هولاكو أن يجهز بالكلية على بركة خان، فأرسل جيشًا جرارًا فيه معظم جنوده يقودهم ابنه أباقا، فخرج لهم بركة خان بنفسه على رأس الجيش، ومزق جيش هولاكو شر تمزيق في منطقة القوقاز، ولم ينج منهم سوى القليل.

أما هولاكو فوجد أن كل البلايا والهزائم التي حاقت به وبالمغول جميعًا كان سببها بركة خان، فاشتد غيظه وحقده على بركة خان، وحاول محاربته عدة مرات، ولكنه هزم شر هزيمة، ما أشعل الغيظ في قلبه حتى وصلت نيران غيظه إلى عقله وجسده، فأصيب بجُلطة في

المخ بعد وصوله خبر هزيمة ولده أباقا أمام بركة خان، وظل يعاني من الصرع حتى هلك في عام 636 من الهجرة، فانتقم بركة خان للإسلام والمسلمين من هذا المجرم الطاغية الذي دمَّر دولة الخلافة الإسلامية وسفك دم الملايين من المسلمين، ودمر حضارةً استغرق بناؤها العديد والعديد من السنوات.

بعد هلاك الطاغية هولاكو من شدة الغيظ والحقد على ما جرى له على يد بركة خان، ورث مكانه ابنه أباقا وورث عنه أيضًا حقده وحسده على بركة خان، خاصةً أن بركة قد هزمه هزيمةً كبيرة، لذلك كانت محاربة بركة هي أولى خطوات وقرارات أباقا بن هولاكو، وبالفعل أعد أباقا جيشًا جرارًا لمحاربة عدوه، وأرسل بركة أولًا قائده نوغاي، ولكنه هُزم وأصيب بسهمٍ في عينه، وكان بركة خان يحب نوغاي لإسلامه وجهاده معه في كل موطن، فخرج بركة بنفسه للقاء أباقا وفي نيته محاربة عدو الإسلام وإزالة هذا الفرع الخبيث من شجرة المغول، التي بدأت تتحول للإسلام شيئًا فشيئًا، ولم يبق منهم على الوثنية غير القليل فقط.

لم يلبث أن قام بركة خان على رأس جيش كثيف وتوجّه نحو تفليس لمواجهة أباقا، لكنه توفي في الطريق في العام 665 من الهجرة.

رحم الله رجلًا قدَّم الكثير والكثير إلى الإسلام، وما زال مظلومًا على صفحات التاريخ حتى كتابة تلك الكلمات، بينما يُمجَّد نده في صفحاتٍ أخرى.

المصادر

- القرآن الكريم.
- صحيح البخاري.
- صحيح مسلم.
- تفسير الطبري.
- العهد القديم.
- قصص الأنبياء في القرآن.. عبد الحميد جودة السحار.
- أبي آدم .. عبد الصبور شاهين.
- الشيطان.. منصور عبد الحكيم.
- الأخوان هابيل وقابيل.. منصور عبد الحكيم.
- حمزة سيد الشهداء.. محمود شلبي.
- فصل الخطاب في سيرة عمر بن الخطاب.. علي محمد الصلابي.
- سيف الله المسلول.. منصور عبد الحكيم.
- عبقرية عمر.. عباس محمود العقاد.
- عبقرية خالد.. عباس محمود العقاد.
- سيرة الزبير بن العوام.. جميل إبراهيم حبيب.
- طلحة بن عبيد الله.. حافظ أسد رم.
- عبقرية عثمان.. عباس محمود العقاد.

- عمرو بن العاص.. عباس محمود العقاد.
- دم الخلفاء.. وليد فكري.
- الفتنة الكبرى.. طه حسين.
- الفتنة.. هشام جعيط.
- سيرة أمير المؤمنين على بن أبي طالب.. علي محمد الصلابي.
- معاوية بن أبي سفيان.. عباس محمود العقاد.
- معاوية بن أبي سفيان.. منصور عبد الحكيم.
- دم الحسين.. إبراهيم عيسى.
- مقتل الإمام الحسين.. الشيخ عبد الزهراء الكعبي.
- الحجاج بن يوسف الثقفي.. منصور عبد الحكيم.
- أبو جعفر المنصور.. كريم ملحم كرم.
- إمام الأئمة الفقهاء أبو حنيفة النعمان.. صلاح محمد أبو الحاج.
- نكبة البرامكة.. نصيف نيقولاس.
- الأمين والمأمون.. خورخي زيدان.
- أحمد بن حنبل بين محنة الدين والدنيا.. أحمد عبد الجواد الدومي.
- شجرة الدر.. خورخي زيدان.
- دم المماليك.. وليد فكري.
- سيف الدين قطز.. منصور عبد الحكيم.

- الملك الظاهر بيبرس.. عماد الدين غانم.
- قصة التتار.. راغب السرجاني.
- هولاكو.. منصور عبد الحكيم
- الملك بركة خان.. محمود شاكر.
- موقع ويكبيديا
- بعض مواقع الإنترنت

عن الكاتب

رامي عبد الباقي

- طبيب وجرّاح الفم والأسنان
- مدير النشر بدار زين
- مواليد الجيزة 1985.
- **صدر له من قبل :**
- المجموعة القصصية استقالة من حبك
- رواية كف بحث
- المجموعة القصصية الملاك المنبوذ
- رواية الحب الأعظم
- **تحت الطبع :**
- رواية تيران
- ند بند الجزء الثاني
- **للتواصل مع الكاتب :**

https://www.facebook.com/ramy.abdelbaki.3

الفهرس